أكلة لحوم البشر

حسام أبو سعدة

دار ابن رشد

رواية

دار ابن رشد

أكلة لحوم البشر

رواية

حسام أبو سعدة

الطبعة الأولى: القاهرة 2017

رقم الإيداع: 2017/21261

الترقيم الدولي: 978-977-6510-79-1

الغلاف: هانيبـــال
عمليات الإخراج الداخلي وتنفيذ عمليات الطباعة
بوحدات شركة مدارك الإعلامية

ابن رشد
وكلاء وناشرون
إشراف عام: أحمد إبراهيم
المدير التنفيذي: بيسان عدوان

ibnroshdeg@gmail.com

+2 01003603778 / +2 01000377889

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Ibn Roshd Egypt ©

جميع المواد الواردة والأفكار تخص كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن أفكار أو توجهات الناشر

حسام أبو سعدة

أكلة لحوم البشر

رواية

القاهرة ٢٠١٧

١

بالرغم من اتساع مساحة المقهى وشهرته إلا أنه أمسى شبه خاويًا. لا يوجد به سوى أربعة رجال فقط. ثلاثة شباب ورجل عجوز أشيب، أسمر، لكن فى عينيه بريق غامض. خبراته الطويلة فى معترك الحياة واضحة من خلال التجاعيد الكثيرة على وجهه.

أطفأ النادل معظم الأضواء، لم يبق إلا مصباحين اثنين فقط. بدا المقهى كأنه كهف مهجور فى بطن الجبل فى غياهب الصحراء. عقارب الساعة تشير إلى الثامنة مساءً. لقد بدأ حظر التجوال منذ ساعتين.

الناس لا تلتزم بالحظر إلا فى أضيق الحدود. المحلات التجارية أغلقت أبوابها. كل المواصلات توقفت. لكن الشوارع ممتلئة بالشباب الصغير. معهم حق. لقد تم الهجوم على بعض السجون وهرب الآلاف من البلطجية والمجرمين والقتلة. كما أن الشائعات ترددت بأنهم يقومون بتهريب السلاح فى عربات الإسعاف. شكّل الناس لجانًا شعبية لمكافحة البلطجة وحماية أنفسهم وبيوتهم وذويهم. يقفون فى نواصى الشوارع بالعصى ويفتشون كل سيارة تمر. يفتشون كل إنسان غريب عن المنطقة. الناس لا تلتزم بالحظر إلا فى أن كل واحد لا يخرج من منطقته. الجيران يعرفون بعضهم جيدًا، من حيث الشكل على الأقل.

جلس النقيب «عماد عبد الله» يرتشف القهوة فى صمت ، يرقب الرجال الأربعة الجالسين فى المقهى بقلق . حاول الاتصال بالعميد «وليد البهنساوي» على التليفون المحمول للمرة الألف . التليفون يرن ولا أحد يرد . حاول الاتصال بمنزله للمرة الألف ، دون جدوى .

آخر لقاء مع العميد «وليد البهنساوي» ، كان منذ خمسة أيام تقريبًا . كانا فى ميدان التحرير ، داخل عربة مصفحة واحدة ، يتصديان للثوار بخراطيم المياه والعصى والصاعقات الكهربائية والقنابل المسيلة للدموع . كل الوسائل فشلت . الثوار لا ينصرفون . فى النهاية أتى الأمر بإطلاق النيران . أصدر العميد «وليد» الأمر له بإطلاق النيران . وقف النقيب «عماد» مترددًا . إنهم ثوار ، ليسوا إرهابيين أو مجرمين ، كيف نطلق النيران على هذه الملايين الغفيرة؟ هذا دمار!

لمح فى عينىّ العميد «وليد» نظرات صارمة لائمة . من شدة النظرة أدرك أنه سيفقد عمله عما قريب ، أو على الأقل سيُحول إلى التحقيق . ستكون هذه نقطة سوداء فى ملفه وهو فى بداية حياته . بعد أن لاحظ العميد «وليد» تردده خطف منه السلاح ، وضع خزينة الطلقات وراح يطلق النيران فى جنون . بعد بضعة لحظات ، قبل أن تفرغ الخزينة ، تراخت يداه ، أنزل السلاح ، احمرت عيناه وجحظت فى هلع ، تقلصت كل عضلات وجهه ، ارتجف كل كيانه . ثم ألقى بالسلاح وراح يجرى بين الثوار .

وجد نفسه بلا قائد ، يجلس وحيدًا فوق العربة المصفحة . الثوار حوله بالملايين . أشعلوا النيران فى العربة فقفز يجرى هو أيضًا .

لم يستطع الخروج من الميدان إلا بعد مشقة بالغة . راح يجرى فى الشوارع لا يعرف إلى أين؟ وما الواجب الذى عليه القيام به الآن؟

شعر بيد تتخطفه من الخلف . ارتجف قلبه فى عنف . الثوار لن يرحموا أبدًا أى ضابط شرطة يقع تحت أيديهم ، خاصة إذا كان يرتدي

زي الأمن المركزى. وجد نفسه داخل مدخل إحدى العمارات القديمة، حوله بعض الشباب الثائر يرتجف وينتفض بينما العرق يتساقط منهم أنهارًا. بالرغم من الإرهاق الواضح عليهم إلا أن فى عيونهم بريق العناد والتحدى. بالرغم من ملابسهم الممزقة إلا أنه من الواضح أنهم أولاد ناس محترمين، بشرتهم ناعمة، ملابسهم حديثة، أى أنهم لا يعانون من شظف العيش. ربت أحدهم على كتفه – يبدو أنه قائدهم– ثم قال فى لهفة:

ـ يجب أن تخلع هذه البدلة فورًا.

نظر إليه فى دهشة. لن ينسى أبدًا ملامح هذا الشاب الأسمر، دقيق الملامح، أسود العينين، مجعد الشعر، مفعم بالقوة والنشاط والحماس. عاجله الشاب وهو يقدم له ملابس أخرى:

ـ بدّل ثيابك فورًا. هذه البدلة خطر على حياتك.

بدّل ثيابه بسرعة وهو يجول بالنظر فيمن حوله. إذا كانوا من الثوار، فلماذا يحمونه؟ التفت إلى الشاب الأسمر وسأله:

ـ هل أنت راض عما يحدث؟

ـ هذه هى النتيجة المنطقية.

ـ لماذا تحموننى إذن؟

أجاب الشاب الأسمر وهو يبتسم لأول مرة:

ـ نحن لا نحاربك أنت. نحن نحارب الفساد والظلم. مصر ليست عزبة تُورث، ولا نريد تخريب بلادنا.

قام الشاب الأسمر بوضع البدلة الرسمية في حقيبة بلاستيكية، ثم أمره بالعودة إلى وحدته.

اتجه إلى وحدته. كانت لحظة الفجر. رفع عينيه إلى السماء يطلب النجدة من ربه. كانت السماء صافية رغم أننا فى شهر يناير. عادةً، تكون السماء ملبدة بالغيوم فى هذا الوقت من السنة. رغم الموقف المؤلم، رغم الانكسار، لا يعرف لماذا بدت عينىّ جارته «نهال» فى السماء. ربما لأنها كانت تسخر منه قائلة: رأيتك من الشباك وأنت تختال بالبدلة الرسمية مثل الطاووس. ترى، لو رأته الآن خائفًا حائرًا، ماذا ستقول له؟

لأن كل وسائل المواصلات تعطلت، وصل إلى وحدته سيرًا على الأقدام فى الحادية عشرة صباحًا. رأى الوحدة خاوية على عروشها. اتصل بالعميد «وليد» على التليفون المحمول وفى منزله ليعلم الأوامر الجديدة. لكن التليفون يرن دون جدوى. ماذا يفعل؟ هل يعود إلى بلدته «الإسكندرية» أم يذهب للإقامة فى أحد الفنادق إلى أن تمر الأزمة وتأتى الأوامر الجديدة؟ لا يستطيع البقاء فى الوحدة وهى بهذا الشكل. لقد تحوّلت إلى مكان موحش مخيف. لكن إذا ذهب للإقامة فى أحد الفنادق سيعلمون من البطاقة الشخصية أنه ضابط شرطة. هل سيتسامحون معه مثل هذا الشاب الأسمر أم سينتقمون منه؟ فى هذه اللحظة أدرك معنى كلمة «بيت» أدرك معنى كلمة «أم».

فى الأيام الأخيرة، كانت والدته تتصل به من الإسكندرية كل ساعة أو ساعتين، ترجوه أن يعود إليها. لكن كيف يترك موقعه فى هذا الموقف الخطير؟ أخبر والدته باختفاء العميد «وليد البهنساوي» فثارت فى غضب وقلق. إذا كان العميد «البهنساوي» نفسه هرب، ماذا تنتظر أنت؟

وجد نفسه بلا قائد فعاد إلى الإسكندرية. عاد هاربًا يرتدي الملابس العادية. كان من قبل لا يسافر إلا بالبدلة الرسمية.

عاد من ذكرياته الأليمة على صوت ضجيج بالمقهى. دخل شاب صغير ينتفض فى غضب وهو يقول ثائرًا:

ـ هل سمعتم حديث النجمة الشهيرة التى ترفض تمثيل القبلة أمام الكاميرا حفاظًا على الآداب العامة؟ إنها تتهم المصريين بالجحود ونكران الجميل نحو «مبارك».

رد شاب آخر، كان يجلس فى المقهى منذ فترة يتابع الأخبار فى التليفزيون:

ـ والآن مُمثل محبوب يدعى أن الثوار يقومون بحفل سكر وعربدة فى الميدان.

قال الرجل العجوز فى هدوء:

ـ شاهدت فى التليفزيون مستشفى ميداني داخل الكنيسة، شاهدت المسلمين يحمون الكنيسة أثناء القداس، وشاهدت المسيحيين يعاونون المسلمين على الوضوء. الثورة ستنجح يا أولاد. فى هذه الحالة يجب سحب الجنسية المصرية من هؤلاء الأفاقين.

٢

فى الصباح، قبل أن يخرج من باب العمارة سأل النقيب «عماد» والدة «نهال» إن كانت تحتاج أى شىء من الخارج. عرض عليها كل خدماته. الثورة تشتعل فى كل مكان وهى تعيش وحدها مع ابنتها الوحيدة «نهال».

يعلم جيدًا أن «نهال» تنظر إليه على أنه رجل فظ غليظ قاس وهو يريد أن يثبت لها عكس ذلك.

دعته الأم لتناول الشاي معها. دخل. كانت «نهال» تحتضن طفلة صغيرة فى السادسة من العمر، سألته:

ـ هل تعلم من هذه الطفلة؟

أجاب بالنفي، فقالت:

ـ إنها «صابرين» ابنة جارتنا فى الطابق الأعلى.

دُهش لبرهة. عندما تخرج فى كلية الشرطة والتحق للعمل فى القاهرة، كانت «صابرين» لا تزال رضيعة لا يتعدى عمرها بضعة شهور. الآن هى طفلة جميلة، مستديرة الوجه، بيضاء البشرة، واسعة العينين. تتساقط خصلات شعرها على جبينها بينما ذيل الحصان يتراقص خلفها فى رشاقة. رغم أنه كان يعود إلى الإسكندرية فى الإجازات الأسبوعية إلا أنه لم يكن يهتم بإقامة علاقات طيبة مع الجيران

سوى «نهال» ووالدتها. لذلك فوجئ بأن «صابرين» أصبحت فى هذا السن. التفتت «نهال» إلى «صابرين» وقالت لها:

ـ قولى رأيك لعمك «عماد».

انكمشت الصغيرة داخل نفسها فى خوف. إنه يتمتع بجسد رياضي ممشوق وصدر عريض، شاربه كثيف فى وجهه الأسمر وشعره قصير على حسب التقاليد العسكرية. شعرت «نهال» بخوف الطفلة فشجعتها قائلة:

ـ قولى رأيك بصراحة ولا تخافي من شيء.

قالت الطفلة فى تردد:

ـ البلطجى بطل.

ضحكت «نهال» من أعماق قلبها وارتجف قلب النقيب «عماد» رغمًا عنه. ثم سأل الطفلة عن السبب.

راحت «صابرين» تقص عليه ما حدث بالأمس. تأخرت مع والدتها فى زيارة خالتها التى تسكن بالقرب من هنا، فى الإبراهيمية. عادتا بعد موعد حظر التجول بقليل. فهمت من أحاديث الكبار مدى خوفهم وذعرهم من انتشار البلطجية، علمت منهم أنهم هاربون من السجون. فى طريق العودة كان الشباب يقفون على نواصى الشوارع لحماية المنطقة. تقدم منهم شاب قاس يمسك فى يده شومة غليظة. ارتجفت الأم وانتقل الخوف إلى الصغيرة. أصر الشاب على اصطحابهما إلى باب البيت وهو يؤكد أن وجودهما فى الشوارع بعد الحظر خطر عليهما. التفتت «نهال» إلى النقيب «عماد» وسألته:

ـ هل تعرف من هذا الشاب؟

ـ من؟

ـ «نادر».

ضحك النقيب «عماد» وهو يقول فى دهشة:

ـ «نادر»؟! إنه فعلًا بلطجى.

قالت «نهال» وهى تشعر بالظفر:

ـ هذه هي الروح المصرية.

فهم ما تقصده، لكنه لا يريد التمادي معها فى مثل هذه الحوارات الآن. راح يداعب الطفلة وراحوا يضحكون جميعًا. إنها أول مرة لا يتشاجران فيها منذ سنوات طويلة. «نهال» تدرس الفلسفة وهي مقتنعة تمامًا أنه من الممكن إصلاح سلوك المجرم عن طريق إصلاح فكره. المجرم عدو المجتمع لأنه يعجز عن التفاهم معه. لو تعاونا معه من أجل التفاهم والتصالح مع البسطاء من حوله سيصبح إنسانًا سويًا. بينما النقيب «عماد» رجل قانون وهو يؤكد على العقاب والتعامل بغلظة مع كل شخص يخرج على القانون. سعد النقيب «عماد» كثيرًا بهذه الساعة الصافية. لأول مرة أصبح يتمنى أن يكون لديه ابنة فى براءة وجمال «صابرين».

بعد أن خرج من منزل «نهال» راح يتجول فى الشوارع تائهًا زائغ البصر. يشعر كأنه يعيش فى بلد غريب عنه. رغم أنه قضى طفولته هنا إلا أنه يرى هذه الشوارع لأول مرة فى حياته، يستكشف العالم من جديد كأنه طفل وليد. رأى إحدى عربات الجيش على قارعة الطريق. ضابط الجيش يقف فى الوسط والناس تلتف حوله، تسأله، تستنجد به كأنه بطل عظيم. لا شك أنه بطل لأنه يؤدى واجبه فى صمود وأمانة. لا شك أن «نهال» رأت هذه التجمعات وأدركت الآن من هو البطل

الحقيقى . ابتسم فى سخرية . «نادر» البلطجى الذى يعلم الجميع أنه إذا لم يجد أحدًا يتشاجر معه يتشاجر مع نفسه أصبح بطلًا ، بينما أصبح هو عاطلا بلا عمل .

فى عصر نفس هذا اليوم ، وهو يبدّل ثيابه إستعدادًا للخروج ، حاولت والدته منعه ، تخشى عليه من الخروج الكثير هذه الأيام . الكثير من الجيران يعلمون أنه ضابط شرطة . الناس ساخطة ثائرة على نظام «مبارك» والشرطة أحد الأركان الأساسية لحماية هذا النظام . لكن من المستحيل أن يقنع بالبقاء فى البيت كالنساء . يجب أن يثبت لنفسه ولـ «نهال» أنه رجل حقيقى . لقد اعتاد على الاستيقاظ المبكر والنشاط الكثيف والسهر الطويل . كيف نقنع مثل هذا الشاب الطافح بالنشاط والحيوية بالبقاء فى البيت؟

كان يشاهد التليفزيون وهو يبدّل ثيابه . كل الناس تتابع الأخبار فى التليفزيون طوال النهار والليل . فى هذه اللحظة أعلن «عمر سليمان» الذي تولى نائبًا عن الرئيس منذ عدة أيام فقط نبأ تنحي «مبارك» عن الحكم .

انتشرت الفرحة فى قلوب الجميع ، إنفجر الناس يصرخون فى فرح . أطلقت السيارات الكلاكسات فى نشوة وصخب كأنها زفة عروس على الطريقة السكندرية المعروفة . ارتجف النقيب «عماد» فى فرح ممزوج بالخوف ، سعادة ممزوجة بالقلق ، أمان ممزوج بالاضطراب . ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ كيف يعيش بلد ضخم فى حجم مصر بلا رئيس ، بلا حكومة؟

لم يستطع البقاء فى البيت لحظة واحدة . ارتدى بقية ثيابه بسرعة خاطفة كأن أصابه مس من الشيطان . مثل كل السكندريين عندما يشعرون بالضيق اندفع إلى البحر . يريد أن يجرى لكنه يخشى أن يتهمه الناس بالجنون .

الزحام شديد، السيارات تصطف بجوار بعضها البعض رغم أن الطريق عريض جدًا، ست حارات ثم جزيرة عريضة ثم ست حارات فى الاتجاه المعاكس. معظم السيارات تطلق نفيرها فى نشوة، معظم السيارات تلوّح بالأعلام بأحجام مختلفة. المشاة يقفون على الأرصفة يرقصون ويهتفون باسم «مصر»، يحملون أطفالهم الصغار، والصغار يصفقون بأيديهم الصغيرة سعداء بهذا الجو البهيج.

النقيب «عماد» يريد أن ينفجر فى البكاء لكنه يخشى أن يتهمه الناس بالصبيانية. مقهى «والى» الشهير الذى كان يتلألأ بالأضواء قبل الثورة وأصبح معتمًا أثناء الثورة عادت إليه الأضواء المتلألئة من جديد. جلس فى المقهى يرقب الاحتفالات. سمع الرجل الذى يجلس بجواره يقول لصديقه:

ـ لو شاهد «مبارك» مدى سعادة الناس برحيله لسقط ميتًا.

قال رجل آخر يجلس على منضدة أخرى:

ـ كيف سنعيش بلا رئيس بلا شرطة بلا قانون؟

فى هذه اللحظة رأى «صابرين» تجلس على أكتاف والدها تلوّح بالعلم المصرى. ود أن يختطفها ويعتصرها فى صدره. لكن علاقته بوالدها لا تسمح له بذلك. عندما رأى ابتسامة «صابرين» إنفجر فى البكاء رغمًا عنه.

جاهد كثيرًا محاولا التحكم فى أعصابه. تذكر «هانى» ابن العميد «وليد البهنساوى». اتصل به على التليفون المحمول. التليفون يرن ولا أحد يرد.

فى طريق العودة رأى الناس ترقص وتغني أمام مقهى «المحروسة». صرخ أحد الشباب قائلا:

ـ أخيرًا سقط آخر الفراعنة.

هنا صرخ الرجل العجوز الأشيب بقوة جبارة لا تتناسب أبدًا مع شيخوخته:

ـ لا تقولوا آخر الفراعنة. . .

جحظت عينىّ مراهق صغير وسأل فى ذهول:

ـ لماذا يا جدى؟

صمت العجوز برهة وهو ينظر إلى عينيه حائرًا ثم قال فى ألم:

ـ هل نستحق هذا الشرف؟

اندفع المراهق يحتضن العجوز بكل قوته، رفعه عن الأرض بضعة سنتيمترات. شعر العجوز بضلوعه ستتحطم بين يدىّ المراهق الفتىّ، صرخ فى ألم:

ـ اعقل يا ولد. . . اعقل يا ولد. . .

أنزل المراهق العجوز على الأرض بقوة ثم ضم قبضتىّ يديه ونفرت كل عروقه وهو يصرخ قائلا:

ـ أنا حفيد «أحمس» و»ميناااا. . .»

٣

السماء معتمة، لا يوجد بها نجمة واحدة. السكون تام، الصمت مطلق إلا من صوت الحشرات والطيور الليلية وهفهفة الأشجار. المركز خاويًا، أثناء الليل يبدو كأن الفراغ يبتلع المركز. الضوء يتساقط من عواميد الإنارة فينعكس على الأرض الطيبة مثل قطرات الدموع المتلألئة على أرض النيل السمراء. دموع ضحايا الفساد والرشاوى، ضحايا الثورة على التوريث.

جلس النقيب «عماد» على مقعد خشبى صغير بجوار باب المُبيت المتهالك. يشعر أن الفراغ لا يحيطه بل يسكن بداخله ويسيطر على قلبه وعقله.

منذ ثلاثة أيام، اتصل به أحد الزملاء وأمره بالعودة. دُهش لأن المكالمة من زميل وليست من العميد «وليد الهنساوى». اتصل به على التليفون المحمول والأرضى، دائمًا الجرس يرن ولا مجيب.

فى طريق العودة، بدت له الصحراء شاسعة، رغم أنه يعرف طريق القاهرة الصحراوى جيدًا إلا أنه يشعر به غريبًا عنه، كأنه يسير على هذا الطريق لأول مرة فى حياته. أسند رأسه على زجاج السيارة وراح يفكر كيف سيواجه جنوده؟ كيف سيجبرهم على طاعته؟ فى الماضى كان يعلّم جنوده المجندين أنهم يتعاملون مع أعداء الوطن وهم قلة

قليلة مندسة. لكن الآن، شاهد الجنود بعيونهم مدى سخط وغضب الجميع. كيف يقنعهم أن الناس كلهم خائنين؟ كيف سيقنعهم أن عملهم هو التعامل مع الإرهاب؟ هل أصبح كل المصريين إرهابيين؟ إذا اقتنعوا، فإن عدد الجنود قليل جدًا فى مواجهة شعب ثائر. لقد شاهد الجنود الثوار وهم يقلبون العربات المصفحة ويشعلونها بينما فر الضباط الكبار والصغار هاربين.

فى هذه اللحظة تذكر كلمة العميد «وليد»: ضابط الشرطة مخلوق من حديد وليس من زجاج. نعم، لا بد أن يكون صامدًا واثقًا من نفسه ومن قدراته. لقد كان من أوائل دفعته.

هبط من السيارة فى مدخل الجيزة الصحراوى. أكملت السيارة طريقها، وقف النقيب «عماد» يرقب المركز من بعيد. شعر برهبة لم يشعر بها من قبل أبدًا. شعر كأنه ذرة رمل صغيرة فى صحراء بلا نهاية.

حمل حقيبته وتقدّم نحو المركز محاولا التماسك. بعد أن وضع حقيبته فى مُبيته توجه على الفور إلى مُبيت العميد «وليد». وجد الباب مغلقًا بالقفل. مشهد القفل يثير مخاوفه. توجه إلى القادة الآخرين يسألهم فعلم أنهم هم أيضًا يتصلون بالعميد «وليد» دون جدوى.

علاقته بالعميد «وليد» ليست علاقة ضابط صغير بقائده. العلاقة تمتد إلى سنوات طويلة. بدأت العلاقة عندما درّس له فى كلية الشرطة. فى هذه الأيام، كان «عماد» يحاول لفت أنظار أساتذته بالجد والاهتمام والانضباط. أعجب بالمقدم «وليد» وقوة شخصيته وصرامته، حاول جذب اهتمامه بالسؤال والمحاورة والتفلسف. سأله يومًا:

ـ لماذا يلجأ الضباط المصريون إلى التعذيب. بينما هذا مُحرم فى جميع دول العالم المتقدم؟

التمعت عينىّ المقدم «وليد» ببريق التحدى ثم قال:

ـ العالم المتقدم الذى تدافع عنه يلجأ إلى التعذيب النفسى والعقلى. هذا أقسى بكثير من التعذيب الجسدى.

ـ لماذا التعذيب أصلًا؟

ـ من أجل الوصول إلى الحقيقة وتقويم سلوك المجرم.

ـ لكن...

صرخ المقدم «وليد» قائلًا:

ـ فى العسكرية لا يوجد «لكن». فى العسكرية يجب طاعة الأوامر وتنفيذها بدقة وذكاء. مجرد التفكير فى الأمر يُعتبر خيانة عظمى.

انكمش «عماد» داخل نفسه خوفًا من أستاذه، وضع المقدم «وليد» يده على كتفه وهزه بعنف وهو يقول:

ـ يجب أن ينظر الناس لضابط الشرطة على أنه أسد. يجب أن يتعاملوا مع الشرطى بنفس هيبة واحترام الأسد.

غض «عماد» بصره قائلا فى صوت منخفض:

ـ معك حق.

صرخ المقدم «وليد» من جديد:

ـ لماذا تنظر إلى الأرض؟ يجب أن تنظر إلى عينىّ. ضابط الشرطة يجب أن يواجه ولا يخشى أحدًا.

رفع «عماد» هامته وقدّم التحية العسكرية فى قوة وهو يقول:

ـ تمام يا فندم.

منذ هذا اليوم، أصبح المقدم «وليد» يتعامل معه بمنتهى القسوة والخشونة. يتساهل مع زملائه فى بعض الهفوات لكن لا يتسامح معه أبدًا إذا كانت ذقنه طويلة أو شعره طويل. فى ذات يوم حرمه من الإجازة الأسبوعية لأنه شاهده يأكل مع الصول «سمير». الطلاب لا يجب أن يأكلوا مع الصولات. هناك مكان مخصص لكل منهم. بالرغم من أن المقدم «وليد» يدرّس له القانون الجنائى إلا أنه كان يتابعه بنظرات ثاقبة أثناء طوابير الرياضة البدنية. يتابعه وهو يأكل وهو يشرب. يقوم بتفتيش خزانة الملابس الخاصة به. إن لم تكن مرتبة يعاقبه على الفور بالحرمان من الإجازة.

شعر فى هذه الأيام بالاضطهاد، أصبح يشك فى قدرته على الاستمرار فى الدراسة مع هذا الوحش الثائر حتى ثار فى وجهه صارخًا وهو على وشك البكاء:

ـ لماذا تضطهدنى أنا بالذات؟ كل زملائى يفعلون مثلى.

هنا ضحك المقدم «وليد» وهو يضع يده على كتفه وقال:

ـ لأنى أرى فيك مشروع ضابط كبير.

أضاءت الابتسامة وجه «عماد». شعر برغبة جارفة فى أن يلقى بنفسه فى أحضانه وشعر الضابط الكبير بما يجول فى نفس الطالب الصغير، فتح ذراعيه وضمه إليه وهو يقول:

ـ أنا أرى فيك شبابى وأتمنى أن تكون ضابطًا كبيرًا.

حدث كل هذا فى العام الدراسى الأول. منذ هذا اليوم أصبح «عماد» نموذجًا للطالب المجتهد المنضبط. يسعى لكى يكون عند حُسن ظن المقدم «وليد».

فى العام التالى وهو يجلس داخل المدرج لسماع إحدى المحاضرات

أتى من يخبره بوجود زيارة خاصة به. كان الزائر هو خاله. جاء ليخبره بوفاة والده. ذُهل عندما سمع الخبر، لم يكن والده مريضًا أو طاعنًا فى السن. هول المفاجأة أصابه بالوجوم. اتجه إلى مكتب المقدم «وليد» ليخبره بالوفاة. على الفور احتضنه وربت على ظهره فى حنان أبوى. قام بنفسه بإعداد كل الأوراق اللازمة للحصول على الإجازة فورًا وأصر على اصطحابه فى سيارته الخاصة إلى الإسكندرية. حضر معه الجنازة والدفن، تلقى معه العزاء. كان كل منهما ينظر إلى عينىّ الآخر من حين لآخر. المقدم «وليد» يبث القوة فى نفس طالبه الصغير.

أثناء الجنازة والدفن وتلقى العزاء لم يبك «عماد» أبدًا. كانت الدموع متحجرة فى عينيه. الرجال لا يبكون، خاصة رجال الشرطة. بعد انصراف الناس صعد معه المقدم «وليد» إلى المنزل، جلس «عماد» على المقعد مهدودًا، ثم قال فى ذهول كأنه اكتشف الحقيقة الآن فقط:

ـ الآن أصبحت يتيمًا.

ربت عليه المقدم «وليد» وقال:

ـ حسب قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الآن بلغت سن الرشد.

انفجر «عماد» فى البكاء والمقدم «وليد» يجلس أمامه صامتًا مشفقًا.

فى خلال بضعة شهور، أصبح المقدم «وليد» هو الأب البديل والأب الروحى أيضًا. سمح له بدخول منزله وعرّفه على زوجته وابنه الوحيد «هانى» الذى كان مازال طالبًا فى الإعدادية. أصبح «عماد» يحلم بالعمل فى المباحث تحت قيادة المقدم «وليد» الذى يعمل فى مديرية أمن القاهرة. لكن للأسف تم تعيينه فى الأمن المركزى. جرى إلى المقدم «وليد» مستنجدًا، فقال له:

ـ فى الماضى ، كانوا يعينون الضباط الفاشلين فى الأمن المركزى . لكن الآن يعينون الأكفاء فى هذا السلاح .

ـ لكنى أرغب فى العمل معك .

ـ أنا واثق أنك ستحقق ذاتك فى هذا السلاح .

التحق بالعمل فى الأمن المركزى وهو حزين لعدم اتمام المشوار بجوار العقيد «وليد» . بالرغم من ذلك كان يزوره فى مكتبه أو بيته من حين لآخر . يقص عليه بعض المصاعب التى تواجهه والعقيد «وليد» لا يبخل عليه أبدًا بخبراته الطويلة .

فى العام الماضى ، التقى به داخل الأمن المركزى على مدخل الطريق الصحراوى . سعد به كثيرًا ، لكن العميد «وليد» لم يكن سعيدًا أبدًا . لقد تم نقله إلى هنا على سبيل العقاب .

٤

لاحظ النقيب «عماد» عدم وجود قفل على الباب.

كان من عادة العميد «وليد» أن يضع القفل عندما يسافر إلى بلدته «طنطا». استيقظ الأمل فى نفسه. هذا يدل على أنه مازال موجودًا فى القاهرة. يتمنى لقاء هذا الرجل ولو مرة واحدة أخيرة. لقد أصبح يشعر الآن بعدم جدوى كل ما تعلمه عن القانون والالتزام. كأنما يريد استكمال دراسته على يد هذا الضابط الكبير المحنك. لكن الأتربة المتراكمة على الباب تدل على أنه لم يُفتح منذ فترة طويلة. ربما منذ شهر ونصف، منذ قيام الثورة.

ضغط على الجرس مرة أخرى ثم أخرج من جيبه منديلا ورقيًا ومسح اللوحة النحاسية المكتوب عليها «عميد وليد البهنساوى». كان سيادة العميد يحب أن يرى هذه اللوحة لامعة متألقة مثل الذهب.

شعر بالباب يُفتح من خلفه. استدار ليجد أمامه الحاجة «صفية» جارة العميد «وليد». ترك الزمن أثره فى شكل تجاعيد كثيفة عميقة فى وجهها الأسمر النحيل. فى بعض الأحيان تبدو له مخيفة، عجوز شمطاء طاعنة فى السن. تجاوز عمرها الثمانين عامًا وأصيبت بضعف الذاكرة من أثر العمر الطويل والوحدة المريرة.

تذكرت العجوز أنها رأته، من قبل، عدة مرات مع «هانى» ابن العميد «البهنساوى». ابتسمت مرحبة ودعته بالدخول.

البيت ليس غريبًا عنه. الأثاث قديم متهالك كأنه قطع أثرية فى أحد الكهوف. التفت إلى الصورة. «هانى» يحملها مثل طفلة صغيرة، يبتسم مداعبًا فى مرح وسعادة وهى تصرخ فى جزع خوفًا من السقوط. كانت الحاجة «صفية» تعتبره كأنه حفيدها. فى كثير من الأحيان تردد فى آسى «هانى» هو الحفيد الوحيد الذى يقيم بجوارى. أحفادها الحقيقيون يقيمون مع ابنتها فى الخليج ومع ابنها فى «هولندا». لا ترى أحفادها الحقيقيون إلا لمدة أسبوع أو أسبوعين كل عامين أو ثلاثة.

قدمت له الحاجة «صفية» كوب الشاى ثم جلست برفق وهى تتأوه من آلام العظام. إبتسم عندما رأى كوب الشاى بالحليب والبيض المسلوق. بعد أن أصابها العجز أصبحت لا تأكل شيئًا سوى البيض المسلوق مع الشاى بالحليب. إنها تخاريف العجز. كثيرًا ما كان «هانى» يتشاجر معها، البيض المسلوق بكثرة خطر على صحتها بعد أن أصبحت فى مثل هذا السن. سألت العجوز وهى تمسك كوب الشاى بيد مرتعشة:

ـ أين «هانى»؟

اعتدل النقيب «عماد» فى جلسته ثم قال:

ـ جئت لأسألك عنه.

ـ أنا لم أره منذ مدة طويلة. منذ قيام الثورة تقريبًا.

نظر إليها محدقًا فى قلق:

ـ وأنا مثلك.

مصمصت شفتيها فى حسرة ثم قالت:

ـ مسكين هذا الولد.

سأل فى دهشة:

ـ لماذا؟

سألت مستنكرة:

ـ ألا تعلم بما حدث؟

انتفض على مقعده متحفزًا وهو يسأل:

ـ ماذا حدث؟

ـ أبوه قتل أمه.

جحظت عينا النقيب «عماد» وهو يسأل:

ـ كيف؟

راحت العجوز تقص عليه ما حدث. فى أحد أيام الثورة، وهى تقف فى الشرفة خائفة تراقب المتظاهرين، لمحت العميد «البهنساوى» قادمًا نحو المنزل. جرت نحو الباب لتعلم منه آخر الأخبار. التقت به على السلم. كان جاحظ العينين فى ذهول، مكفهر الوجه، شعر رأسه يقف فى غضب. دُهشت لأن شعر رأسه قد شاب فجأة. سألته عن آخر الأخبار لكنه لم يلتفت إليها. يبدو أنه لم يشعر بوجودها. اتجه نحو شقته مذهولاً كأنما كان مسحورًا أو منومًا مغناطيسيًا. بعد بضعة دقائق سمعت صوت ارتطام وصراخ فى الشارع. جرت نحو الشرفة لتجد «سميرة» زوجة العميد «البهنساوى» ملقاة على الأسفلت وسط بحيرة من الدم أمام باب العمارة. التف الناس حول جثتها. النساء يصرخن والرجال يتلفتون حول أنفسهم فى ذعر.

قال «عماد» مدافعًا عن العميد:

ـ ربما تكون سقطت وحدها من الشرفة.

أكدت العجوز:

ـ أنا واثقة أن العميد قتلها.

ـ لماذا؟

ـ بعد بضعة لحظات رأيت العميد وهو يخرج من شقته فى هدوء. جريت نحو الشرفة لأرى ما سيحدث. رأيت العميد وهو يخرج من باب العمارة مبتعدًا دون أن يلتفت إلى جثة زوجته. ومنذ هذا اليوم لم يعد. هرب طبعًا.

سألها متحفزًا:

ـ وماذا عن «هانى»؟

ـ هو أيضًا لم أره منذ هذا اليوم. علمت بعد ذلك من أهل «سميرة» أن العميد «البهنساوى» لم يحضر جنازة زوجته، ولا حتى ابنها. لقد اتصل الجيران بأهلها وقاموا بطقوس الدفن.

ذُهل النقيب «عماد» مما يسمع. أعاد كوب الشاى إلى المنضدة فسقط الكوب وتحطم. هبت العجوز تلملم الكوب المحطم وهى تقول له مجاملة:

ـ لا تشغل بالك.

راح النقيب «عماد» يراقبها وهى تلملم الحطام، ثم قال فى ذهول:

ـ العميد «البهنساوى» لا يفعل ذلك أبدًا. هو الذى درّس لى القانون. من المستحيل أن يكون مجرمًا.

التفتت العجوز إليه وقالت فى خوف:

ـ أنت ضابط شرطة إذن؟

لم يجبها لكنها تذكرت أنها رأته مرات كثيرة بالبدلة الرسمية. تركت الكوب المحطم وجلست مهزومة وهى تقول:

ـ أنا لا أعلم شيئًا.

ـ مم تخافين؟

أجابت متوسلة:

ـ أنا امرأة عجوز. لن أتحمل التحقيقات. لن أتحمل الإهانة فى النيابة وأقسام الشرطة.

ثم أكدت وهى على وشك البكاء:

ـ أنا لا أعلم شيئًا.

تذكر النقيب «عماد» حنان جدته الدافق. ربت عليها برفق مؤكدًا لها استحالة أن يفعل العميد «البهنساوى» ذلك. أكد لها أنه لن يذكر اسمها أبدًا فى التحقيقات، إذا حدثت تحقيقات.

بعد أن خرج من باب العمارة ألقى نظرة فاحصة على شرفة العميد التى فى الطابق الثالث. هول الصدمة جعله يشعر بحنين جارف إلى الإسكندرية. الإجازة قصيرة جدًا، ستة وثلاثين ساعة فقط. جرى نحو محطة القطار كأن الإسكندرية هى الملجأ أو الملاذ.

٥

الناس أصبحوا عمالقة يرتدون ملابس سوداء معتمة. يلتفون حوله يحجبون عنه النور والهواء. يجلس وسطهم فى العتمة مخنوقًا مشلولا. يحاول الهرب لكن العمالقة أقوياء أشداء، يحكمون الحصار. من بين هذا السواد تظهر نقطة ضوء صغيرة. من خلال هذه الفرجة يلمح الشاب الأسمر الوسيم الذى أنقذه يوم الثورة. رغم أنه لم يتبين ملامحه بدقة لكنه شعر بطيبته وسماحته.

انتفض النقيب «عماد» مرتجفًا. استيقظ ليجد نفسه فى فراشه والعرق يتفصد منه بغزارة. فى البداية لم يعرف أين هو؟ ثم حمد ربه على أنه فى فراشه، فى منزله، والدته تنام فى الحجرة المجاورة. ستوقظه فى الصباح وتعد له الإفطار.

نظر إلى الساعة التى فى معصم يده فوجدها السادسة صباحًا. حاول العودة إلى النوم دون جدوى. لقد استعاد وعيه بالكامل. هب واقفًا وخرج إلى الشرفة ليراقب حركة الترام. استلقى على مقعد وثير محاولا الإستمتاع بضوء الشمس الخافت ونسمات الصبح الندية.

غريب أمر هذا الشاب الأسمر. يشعر كأنه يعرفه جيدًا. كأنه أحد أقاربه أو صديق حميم وفىّ مخلص. ربما أكثر من ذلك. الألفة التى بينهما كبيرة، كأنه يجرى فى عروقه. بحث فى الذاكرة محاولا اكتشاف

العلاقة التى تربطه به . أين التقى به قبل هذا اليوم؟ ما الحورات التى دارت بينهما؟ لا يعرف . كل ما يعرفه أنه قريب جدًا إلى قلبه . الذاكرة خذلته . إذا كان قد استعاد وعيه بالكامل فى لحظة واحدة إلا أن الذاكرة ضغيفة . أو ربما مشتتة . بالتأكيد مشتتة بسبب ما حدث بالأمس .

لقد استقل القطار من القاهرة فى السابعة مساءً . كان الزحام شديدًا مروعًا فى محطة القطار . الأوتوبيسات والسيارات الأجرة أصبحت تخشى السفر أثناء الليل . لقد أصبحت الطرق خالية من كل نقاط التفتيش وكل رجال الشرطة . انتشر قُطاع الطرق يعيثون فى الأرض فسادًا . يجبرون السيارات على التوقف بطرق كثيرة ثم يسرقون الأموال والتليفونات المحمولة . لا يستطيعون سرقة الأوتوبيسات لكن يسرقون السيارات الأجرة ويتركون الناس على الطريق بلا سيارة وبلا مال وبلا تليفون .

لم يجد لنفسه تذكرة فى الشباك . خشى أن يخبر الموظف أنه ضابط شرطة ومن حقه الحصول على إحدى تذاكر الطوارئ . بالرغم من ذلك ركب القطار ودفع الغرامة . كان من المفروض أن يصل إلى الإسكندرية فى التاسعة مساءً .

ما أن تحرك القطار بضعة كيلومترات حتى توقف . فى الوهلة الأولى اعتقد الركاب فى وجود عطل وسيزول بسرعة . إنهم يستقلون القطار المباشر السريع ، أفخر أنواع القطارات . لكن بعد لحظات انتشرت همهمات القلق والخوف . الثوار يجتمعون فوق القضبان ليقطعوا طريق القطارات .

صرخ الأطفال فى خوف وهم يقبضون بأيديهم الصغيرة على ملابس الأمهات . الأباء يحاولون تهدئة الصغار دون جدوى ، لقد استشعر الصغار القلق من عيون الأباء والأمهات . النساء يبكين فى

جزع والرجال عاجزين عن فعل أى شيء. هل يجبرون السائق على التحرك ودهس المتظاهرين. هذا حرام. راح الناس يتساءلون عن سبب استمرار الثورة. لقد تنحى «مبارك» وانتهى الأمر. لكن سرعان ما انتشر الخبر، عرفوا السبب. إنهم يطالبون بمحاسبة كل من قتل الثوار فى ميادين مصر المختلفة.

عندما علم النقيب «عماد» بالسبب انكمش داخل نفسه. راح يرقب نظرات الناس فى خوف. ماذا سيفعلون معه لو علموا أنه ضابط شرطة وقد شارك فى قمع الثوار فى الأيام الأولى.

التف الثوار حول القطار. توقع الركاب أنهم سيهجمون على القطار ويحطمونه. هذا سيؤدى إلى موت كثيرين وإصابات خطيرة لكن هذا لم يحدث. راح الثوار يشيرون إلى الركاب ليطمئنوهم. فى ظلام الحقول تظهر لافتات بيضاء مكتوب عليها: سلمية . . . سلمية. أحدهم فتح باب القطار. كان شابًا صغيرًا فى العشرينيات. كانت كل عضلات وجهه تنتفض فى غضب وراح يؤكد للناس أنهم سيسمحون للقطار بالعبور بعد ساعتين. راح يؤكد أنه لا يفعل ذلك إلا من أجل المطالبة بالقصاص لدم الشهداء الذين قُتلوا برصاص الشرطة ودُهسوا تحت عجلات عربات الأمن المركزى. ارتجف النقيب «عماد» فى ذعر بينما قدمت سيدة عجوز بعض السندوتشات التى معها للشاب وهى تعتذر لعدم وجود شيء أكثر من ذلك معها. ابتسم الشاب وربت على كتفها قائلا: شكرًا لك يا أمى. كان الشاب أبيض البشرة، مستدير الوجه، يقص شعر رأسه بطريقة عصرية حديثة. مظهره يدل على أنه من أصل راق. بعض العجائز يتهمون أمثاله بالضعف والتخاذل. لكن كلمات الشاب تؤكد ثقافته الواسعة ورقى تعليمه. بالرغم من ذلك يندفع مدافعًا عن حقوق الغالبية العظمى من الفقراء والبسطاء والعاطلين

والجاهلين . بعد ساعتين أفسحوا الطريق ووصل القطار إلى الإسكندرية فى الواحدة صباحًا .

جلس النقيب «عماد» فى الشرفة يرقب حركة الترام وهو يتساءل فى نفسه: هل هرب العميد «وليد البهنساوى» خوفًا من المحاكمة؟ احتمال كبير .

غفلت عينيه رغمًا عنه وغط فى نوم عميق . ثم استيقظ على صوت جميل قريب إلى نفسه . كانت «نهال» تقف فى الشرفة المجاورة تقول: صباح الخير . فتح عينيه ليجد وجهها الصبوح وابتسامتها الصافية فرد لها التحية وهو يهب واقفًا ليقترب منها . سألته مازحة:

ـ أمازلت تستمتع بمراقبة الترام؟

تنهد محاولا اجتذاب عطفها وقال:

ـ لم أعد أستمتع بأى شىء فى هذه الدنيا .

قطب جبينها وأكملت المزاح قائلة:

ـ أنت فى حاجة إلى جلسة مع طبيب نفسى . سأشرب معك الشاى بعد الإفطار .

شعر بالطمأنينة بعد أن حصل على هذا الوعد . بعد الإفطار جلست معه فى الشرفة . أخذ نفسًا عميقًا مستنشقًا رائحتها العطرة التى خدرت كل حواسه وهو يقص عليها ما علمه من الحاجة «صفية» . ثم أكد استحالة أن يفعل العميد «البهنساوى» ذلك . إنه رجل شرطة جاد وحازم ، إنه رجل قانون ومن المستحيل أن يتحول إلى مجرم أبدًا . قطبت «نهال» جبينها فى فزع من كلمة القتل . فكرت مليًا ثم قالت:

ـ ربما تكون الشرفة قديمة متهالكة فسقطت بها .

ـ هذا ما توقعته أنا أيضًا لكن الشرفة سليمة تمامًا. لا يوجد بها أى شروخ.

ـ ربما العجوز تهذى.

ـ البقال الذى أسفل العمارة يؤكد أن عدم اكتراث العميد «البهنساوى» بجثة زوجته دليل قاطع على أنه قتلها.

ـ ربما تستحق القتل.

اندهش النقيب «عماد» من هذه الجملة. هذا مستحيل. إنها سيدة طيبة مسالمة جدًا. راح يقص عليها كيف كانت كريمة سخية معه عندما يزورهم. كانت أم حانية مع ابنها «هانى» وزوجة مخلصة وفية لزوجها. إنها لا تستحق القتل أبدًا. بالإضافة إلى كل ذلك، كانت متدينة وتخشى الله.

راح النقيب «عماد» يقص عليها ما كان يحدث عندما يذهب معها إلى السوق. فى بعض الأحيان، عندما يكون العميد «البهنساوى» مشغولا فى عمله وابنها «هانى» يكون مشغولا بدراسته يقترح عليها الذهاب معها إلى السوق لشراء بعض حاجياتها، خاصة عندما ترغب فى الذهاب إلى الأسواق البعيدة حيث المتاجر الراقية. إنها لا تملك سيارة خاصة بها ولا تطالب بذلك أبدًا. عندما يدخلان أى متجر يقوم بتقديمها إلى البائع أو صاحب المحل بفخر. يجب على الجميع أن يحترم زوجة العميد «البهنساوى». لكنها كانت تخجل من ذلك كثيرًا. كانت تطلب منه عدم فعل ذلك. زوجة العميد «البهنساوى» لا تمتاز بأية امتيازات. تحب أن تكون مجرد إنسانة بسيطة لكنه كان يُصر على أن يدفع الجميع على التعامل معها باحترام وخوف. كثيرًا ما كان يُطالب البائع بخصومات خاصة من أجل سيادة العميد فترتبك ويتشرب

وجهها بحمرة الخجل وهى ترفض بشدة قائلة:

ـ إنى أخاف الله. يجب أن أدفع السعر بالكامل.

لكن النقيب «عماد» يُصر على الحصول على سعر خاص من أجل سيادة العميد. ثم يؤكد لها عندما يخرجان من المتجر أن ضباط الشرطة لهم مكانة خاصة فى المجتمع. إنهم يعملون طوال الليل والنهار فى خدمة المجتمع. سيدة تتمتع بهذا الخلق لا تستحق القتل أبدًا.

لاحظت «نهال» انفعاله الشديد وهو يتحدث، أرادت أن تخفف من توتره فقالت مازحة:

ـ هكذا يوجد دافع للقتل.

ـ ماذا تقصدين؟

ضحكت وهى تقول:

ـ إنها تخاف الله.

نظر إليها بعمق متشككًا فى المغزى من قولها. يعلم أنها ترى رجال الشرطة غلاظ قساة. لكنها ربتت على ركبته لتهون عليه فابتسم رغمًا عنه.

فى هذه اللحظة سقطت فوقهما زهرتين من الياسمين. التفتا إلى الأعلى ليجدا «صابرين» فى الشرفة التى فوقهما تلقى عليهما بزهور الياسمين الذى تزرعه فى شرفتها. أشارت لهما بيديها الصغيرة وهى تضحك، وضحك النقيب «عماد» و«نهال» من أعماق قلبيهما وهما يردان لها التحية.

٦

أصدر سيادة اللواء أوامره بصيانة وتنظيف كل قطع السلاح اليوم. بعد احتراق أقسام الشرطة وهروب المساجين أصبح الوضع الأمنى فى غاية الخطورة. قد تأتى الأوامر له فى أية لحظة بالتحرك لاستعادة الأمن.

كان سيادة اللواء قد تفقد وحدته من أسبوعين تقريبًا، بعد أن عاد الجنود إلى الوحدة واستعاد سيطرته عليهم. معظم العربات احترقت أو تعطلت فى الثورة. أصدر أوامره بإصلاح كل العربات فورًا. واصل الجنود والضباط العمل طوال النهار والليل. تم تنفيذ التعليمات بدقة متناهية وأنقذ ما يمكن إنقاذه. بعد أن انتهى من إصلاح العربات بالأمس أصدر أوامره اليوم بصيانة وتنظيف كل قطع السلاح فورًا. ولأن فكر الثورة انتشر فى كل مكان، ثار بعض الجنود محتجين. العمل أصبح كثيرًا جدًا. لا يوجد إجازات، فترات الراحة اضمحلت إلى النصف.

ثورة جنود الأمن المركزى أمر فى غاية الخطورة فى مثل هذا الموقف. فى الظروف الاعتيادية يجب معاقبة كل المجندين. القاعدة تقول: الحسنة تخُص والسيئة تعُم. لكن الثورة أصبحت فى ذهن كل طبقات وطوائف الشعب. وصلت العدوى إلى جنوده بالرغم من كل ما بذله من جهد فى ترويضهم وتطويعهم. بخبرته أدرك سيادة اللواء خطورة الموقف بسرعة. من خلال الضباط علم أسماء الجنود المتمردين وأمر لهم بطابور ذنب لمدة ثلاث ليال متتالية. الطابور يكون فى فترة

العصر ، من الرابعة إلى السادسة .

جلس النقيب «عماد» فى مكتبه يشرب الشاى وهو يسمع صوت سيادة اللواء يجلجل فى أرض الطابور . كان يؤكد لهم أهمية الطاعة العمياء . القائد هو الذى يعلم كل التفاصيل والأسرار . لو تلكأ أى منهم فى تنفيذ الأوامر أو حتى تردد لبضع ثوان ، قد يعرض حياته وحياة زملائه للخطر . والوطن كله فى حالة خطر . ثم راح يؤكد لهم أنه لن يسمح أبدًا بوجود تمرد فى جنوده . عدم تنفيذ الأوامر خيانة عظمى والخيانة عقوبتها السجن وأحيانًا القتل إذا لزم الأمر .

ابتسم النقيب «عماد» فى سخرية . لا بد من تنفيذ الأوامر بدقة متناهية . لا يجب التردد أبدًا ، مجرد التفكير فى الأمر ممنوع . ومع ذلك قد يُعاقب الضابط على طاعته العمياء . تنهد فى أسى وهو يتساءل فى نفسه أين العميد «البهنساوى»؟

منذ يومين ، صدرت الأوامر من الوزير بمعاقبة بعض الضباط الذين أطلقوا النيران على الثوار . الحمد لله أن اسم العميد «البهنساوى» ليس منهم . لكن كيف نعاقب الضابط الذى أطاع الأوامر طاعة عمياء؟ لو اعترض الضابط سيعتبر خائنًا ويعرض نفسه لمحاكمة عسكرية . ومن نفذ الأوامر بدقة وحسم دون أى تردد ينتظر الآن المحاكمة . نعاقب الضابط المتمرد ونعاقب الضابط المطيع . ما هذا الهراء؟ لو فشلت الثورة لأصبحت الآن فى السجن أنتظر المحاكمة العسكرية لعدم تنفيذ الأوامر . هل هرب العميد «البهنساوى» بعد أن شعر بهذه المفارقة الغريبة؟ معه حق طبعًا .

شعر بضيق شديد . جدران المكتب تضيق لتكتم أنفاسه . خرج وجلس بجوار باب المكتب وهو يمسح العرق المتساقط بغزارة . لكن المركز كله يضيق بالرغم من اتساعه . توجه إلى مكتب قائده وحصل

على تصريح بالخروج لمدة ست ساعات فقط.

خطرت على رأسه فكرة مجنونة. لماذا لا يذهب إلى ميدان التحرير ويرقب ما يحدث الآن. فى الطريق لاحظ الدبابات فى نواصى الطرق. الناس تلتف حول الدبابات يلتقطون الصور التذكارية، سعداء بجيشهم المجيد. كل وسائل الإعلام تردد أن ثورة ٥٢ كانت ثورة جيش باركها الشعب وثورة ٢٠١١ هى ثورة شعب باركها الجيش.

ما أن وصل إلى ميدان التحرير حتى شعر بعيون تترقبه. تلفت حول نفسه، لا أحد يشعر بوجوده أو يهتم به. راح يتجول فى الميدان وذُهل مما رأى. الثوار ينظفون الميدان. يلملمون النفايات التى تكدست فى أكوام كبيرة بعد أن اختفت شركات النظافة. يحملون القمامة على عربات نصف نقل لتذهب وتلقيها خارج المدينة. علم من الحوار الذى يدور بينهم أن أصحاب السيارات النقل الصغيرة تطوعوا لرفع القمامة دون مقابل من أجل الحفاظ على نظافة الميدان وصحة المصريين. وهو يراقب ما يحدث توقفت إحدى السيارات الملاكى، سيارة فاخرة. هبط منها رجل أنيق فى الأربعينيات من العمر. تقدم نحوهم وهو يقول:

ـ أنا ذاهب الآن إلى «بور سعيد». من الممكن أن أحمل فى سيارتى بعض القمامة لألقيها فى الصحراء.

شكره الثوار وراح الرجل الأنيق يحمل القمامة بيده ويضعها فى حقيبة سيارته الفاخرة ثم انطلق.

أكمل النقيب «عماد» تجواله. الشباب الصغار الذين دون العشرين من العمر يكنسون الشوارع وبعضهم الآخر يطلى إفريز الرصيف باللون الأبيض والأسود. الجزء الذى انتهوا منه أصبح نظيفًا رائعًا جميلا. لم ير القاهرة بمثل هذا الجمال من قبل. شعر كأن القاهرة زهرة جميلة لكنها ملقاة وسط الطين أو ربما فتاة بدوية رائعة الحسن لكنها تعانى

الإهمال وشظف العيش.

تقلصت كل عضلات وجهه فى انفعال. يشعر بالرغبة فى الاندماج فى العمل معهم. لكنه يخشى أن يراه أحد أصدقائه أو زملائه. خاصة أنه مازال يشعر بعيون غامضة ترقبه. نظرات ثاقبة تخترقه وتصل إلى أعماقه. تلفت حول نفسه، لا أحد يرقبه، لا أحد يشعر بوجوده.

أكمل طريقه حتى وصل إلى كوبرى «قصر النيل». رأى الشباب يتسلقون الأسدان ويعملون بجد واهتمام فى التنظيف والتلميع. اكفهر وجهه فى ألم عندما تذكر ما قرأه فى كتب التاريخ. فى ذات يوم، فتح الملك هذا الكوبرى أمام الثوار وسقط بعضهم غريقًا فى نهر النيل. لكن الثوار القدامى لم يقوموا بأعمال التنظيف والتجميل بعد الثورة.

لقد درس فى الكتب أن الغضب قد يدفع الجماهير للخروج فى ثورة. الثورة قوة غاشمة هادرة تدمر كل من يقف أمامها. هنا تكمن أهمية الأمن المركزى. لكن الثورة التى يراها أمامه الآن ليست كذلك. إنها ثورة ترغب فى البناء والتعمير والتجميل. درس فى الكتب أن الثائر لا يكون عاقلا أبدًا، الثورة تعنى أن العاطفة تغلبت على العقل. لكن هذه الثورة عاقلة تمامًا. كل ما درسه يتناقض مع الواقع تمامًا. يشعر الآن أنه فى حاجة ملحة إلى العميد «البهنساوى». يشعر بخطأ كل ما تعلمه. يريد استكمال دراسته على يد هذا الضابط الكبير المحنك. لكن أين هو؟

عاد إلى الناحية الأخرى من الميدان، جلس فى إحدى المقاهى وطلب فنجان قهوة. قبل أن يأتى النادل بالقهوة شعر بقبضة حديدية حول معصمه وصوت أجش يقول:

ـ لن أتركك أبدًا.

التفت فى ذعر ليجد أمامه وجهًا أسمر ضخمًا محاط بلحية ضخمة مهيبة، كأنه وجه أسد، لكن نظرات عينيه هى نظرات نمر غادر. قال الشاب الأسمر ذو اللحية وفى عينيه بريق التحدى:

ـ ألا تذكرنى؟

أجاب النقيب «عماد» فى حذر بالنفى. فقال الشاب الأسمر وهو يجز على أسنانه فى غيظ:

ـ الصياد لا يذكر فريسته أبدًا. ومع ذلك، معك حق. لقد تغير شكلى كثيرًا بعد اللحية.

راح الشاب يقص له ما حدث منذ عامين. كان دارسًا للكيمياء فى كلية العلوم. فى إحدى المحاضرات قال لنا الدكتور «فاضل»: لا تحلموا بالمرتبات الضخمة فى شركات البترول، لا يمكن الحصول على هذه الوظائف إلا بتوقيع من الوزير نفسه. كنا نحب هذا الأستاذ لصدقه وشجاعته. كان يقيم لنا الندوات للتثقيف. فى إحدى الندوات، بمناسبة إنتخابات رئاسة الجمهورية الرابعة لحكم «مبارك» كشف لنا عن العبث الذى حدث فى الدستور بتغيير حرف واحد فقط، هذا التغيير يسمح لرئيس الجمهورية بالبقاء فى الحكم مدى الحياة. ثم قال: عدم تداول السلطة هو السوسة التى تنخر فى العالم العربى والانهيار هو النتيجة المنطقية. بعد يومين تم فصل الدكتور «فاضل». خرجنا فى مظاهرة مدافعين عن أستاذنا المحبوب، إنه يقدم لنا الحقيقة فى أبسط صورها. وفجأة، التفت حولنا عربات الأمن المركزى. لموا كل من فى المظاهرة بوحشية مثلما يلملم الصياد أسماك البساريا الصغيرة فى الشباك. كانوا يدفعوننا إلى داخل العربات بهمجية كأننا حيوانات مريضة يجب إبادتها. كنت أنت أحد هؤلاء الضباط. بسببك قضيت عامًا كاملا فى سجن وادى النطرون. دون أى تحقيقات ودون أن يعلم

أهلى عنى أى شىء. بعد الإفراج اكتشفت وفاة والدى حزنًا وحسرةً على ابنه المفقود. لم أجد فى نفسى الرغبة فى استكمال الدراسة. أو ربما اكتشفت عدم أهمية دراسة الكيمياء. هناك الكثير من الكيميائيين يتخرجون كل عام ولا يجدون أى عمل. بعضهم وصل إلى الخمسين عامًا دون عمل، والقليل جدًا يعمل براتب ضخم فور تخرجه لأنه ابن مسؤول كبير. الظلم ينمو والفساد يكبر، الأخلاق تنهار ومن لا يجد واسطة يُدهس تحت أقدام الفاسدين والمرتشين. اكتشفت أن كل علم فى غير سبيل الله فهو زائل. لذلك اتجهت إلى دراسة العلم الحقيقى. السنة التى قضيتها فى السجن جعلتنى أكثر قوة وصمودًا وعنادًا. كل قوانينكم ظالمة غاشمة. لا بد من العودة إلى شرع الله. هذا هو طوق النجاة الوحيد. ولا أمل غيره.

كان الشاب يقص قصته وهو قابض على يد النقيب «عماد» بقبضة حديدية ثم جذبه بعنف وهو يقول له:

ـ هيا بنا.

ارتجف النقيب «عماد» وهو يسأل:

ـ إلى أين؟

ـ إلى أى مكان آمن لنتحاسب. لن أنسى أبدًا أنك حشرتنى فى عربة الأمن المركزى كأننا لسنا بنى آدميين. حتى الجزار لا يتعامل مع الخروف بمثل هذه الهمجية. لو كنتم تريدون ذبحنا فالذبح له أصول وقواعد. لقد أمر الله بالرحمة عند الذبح. لكن أنتم لا تستحقون الرحمة.

أخرج الشاب مطواة صغيرة من جيبه ووضعها فى جانب النقيب «عماد» وهو يدفعه أمامه. راحا يسيران فى شوارع الميدان المزدحمة،

كلما حاول النقيب «عماد» الصراخ ليلفت نظر أحد المارة كلما شعر بالمطواة تغوص فى جنبه. فى النهاية استجمع شجاعته، ركله بقدمه من الخلف واندفع يجرى بكل قوته. فى اندفاعه لم يشعر أن المطواة قد انغرست فى جانبه الأيمن. راح يجرى فى الشوارع والناس حوله تصرخ لمشهد الدماء لكنه لم يكن يسمع شيئًا ولا يرى شيئًا. راح يجرى دون أن يلوى على شىء إلى أن سقط مغشيًا عليه.

لم يشعر بما حدث بعد ذلك. فتح عينيه ليجد نفسه مستلقيًا على الفراش فى المستشفى. التفت ليجد أمه بجواره تبتسم مستبشرة خيرًا لعودة الوعى إليه. قبلته ثم جرت تستدعى الطبيب ليطمئنها عليه. بعد ساعة علم من والدته أن المارة نقلوه إلى المستشفى. وهناك عندما علموا أنه ضابط نقلوه إلى مستشفى الشرطة. وهناك اتصلوا بها فأتت على الفور ملتاعة.

لا شك أن وجود والدته أعاد إليه بعض الطمأنينة. بعضها وليس كلها. على كل حال إنها امرأة وهو يحتاج الآن إلى الأب الرجل. إنه الآن فى أشد الحاجة إلى العميد «البهنساوى». لكن أين هو؟

٧

حصل على إجازة لمدة أسبوعين للعلاج. عاد إلى الإسكندرية بصحبة والدته.

أمضى الأيام الثلاثة الأولى فى المنزل. لم يكن من الممكن البقاء فى المنزل طوال هذه الفترة إلا بفضل وجود «نهال» و«صابرين» إلى جواره. يقضيان معه معظم الوقت، يشاهدون التليفزيون، يضحكون ويمزحون. حاولت «نهال» تجنب الدخول معه فى حوارات مهمة رحمة بضعفه ومرضه، وكان هو سعيدًا بهذا الجو العائلى البهيج. منتشيًا برائحة عطرها النفاذ التى تخلب عقله. عندما يحاول التقلّب تهب لنجدته، تسانده وتعاونه، فيصبح رأسه قريبًا من صدرها فيأخذ نفسًا عميقًا فى ارتياح وهو يبتسم. فى هذه اللحظات ينسى وجود «صابرين» ويتمنى الدخول فى أعماق صدرها. أصبح كثير التقلّب حتى يقترب منها أكثر فأكثر. عندما لاحظت «نهال» ذلك التزمت بمكانها على المقعد المجاور للفراش وهى تقول باسمة فى دلال:

ـ يجب أن تعتمد على نفسك.

فيتمارض وهو يقول مداعبًا:

ـ أنا مريض وفى حاجة إلى المساعدة.

تلتفت إلى «صابرين» وتقول ضاحكة:

ـ عاونيه على الجلوس.

فتضحك الصغيرة وتعاونه.

بالرغم من هذا الجو البهيج إلا أنه ضاق ذرعًا بالبقاء فى المنزل أكثر من ذلك. قال مهددًا مازحًا فى اعتراض:

ـــ إن لم أخرج اليوم سأذهب إلى مسجد القائد إبراهيم وأقوم بثورة ضدكم.

حاولت الأم منعه متوسلة لكنه أصر على الخروج. اقترحت «نهال» الخروج معه لتكون بجواره إذا شعر بأى تعب. التمعت عينيه ببريق السعادة والفرح وهو يبدّل ثيابه فى همة ونشاط.

اقترح عليها التجول فى شارع «لاجيتيه». يشعر بحنين جارف إلى هذا الشارع حيث قضى فترتى الطفولة والمراهقة يتجول يشاهد الفترينات ويغازل الفتيات. لكن ما أن وصلا إلى ناصية الشارع حتى ذُهل بالزحام الشديد.

تقدما فى الزحام. الناس تتخبط ببعضها البعض. «نهال» تسير خلفه أو بجواره تحاول منع الناس من الاصطدام به. قد يصدمه أحد فى مكان الجرح الذى لم يشف حتى الآن. الشارع فى حالة فوضى عارمة. بالرغم من أن انتظار السيارات ممنوع فى هذا الشارع التجارى المهم إلا أن السيارات تصطف على الجانبين. الباعة الجائلون يفترشون الرصيف على الجانبين، كثير منهم يفترش بضاعته على الأسفلت. الصخب شديد، الصياح عاليًا، كلّ مشغول بحاله لا يلوى على شىء. السيارات تدق نفيرها فى إلحاح والمشاة لا يجدون لهم مكانًا، لا على الرصيف ولا على الأسفلت. بالرغم من أن مرور السيارات فى

إتجاه واحد إلا أن هناك سيارة تصر على الدخول عكس الاتجاه. قائد السيارة يصرخ فى الناس بوقاحة ويصر على الدخول فى الممنوع. لقد احترقت أقسام الشرطة، لم يعد هناك ضباط مرور ولا ضباط مباحث ولا شرطة مرافق. بالإضافة إلى هروب عدد كبير من المجرمين من السجون. الكل يسير على هواه ويفعل ما يشاء دون أى انضباط.
توقف النقيب «عماد» فى إحدى النواصي والتفت إلى «نهال» وقال:

ـ شعب فرعونى فوضوى.

اندفعت «نهال» تقول فى غيظ:

ـ الفراعنة كانوا أرقى وأعظم ناس فى تاريخ البشرية.

أشار إلى الفوضى وقال:

ـ لكن أحفادهم لا يرضخون للقانون إلا بقوة الكرباج.

سحبته إلى الشوارع الجانبية الهادئة خوفًا عليه من الاصطدام ثم قالت:

ـ فى أوروبا لا يلتزمون بالقانون إلا خوفًا من العقاب.

بالرغم من أنه لم يشاهد أية مدينة أوروبية لكنه اندفع قائلا:

ـ فى أوروبا يفتخرون باحترام القانون وهنا يتفاخرون بخرق القانون.

قالت مدافعة:

ـ هناك يحترمون القانون لأن الحكومة عادلة، وهنا يخرقون القانون لأن الحكومة ظالمة. ما الذى تنتظره من الناس إذا كان ضباط الشرطة أنفسهم يخرقون القانون.

كاد يندفع مدافعًا عن رجال الشرطة لكنه تذكر شيئًا مهمًا أخرسه. كثيرًا ما كانت «نهال» تشاهده من الشرفة وهو يدخل الشارع الذى به بيتهما عكس الاتجاه. فى بعض الأحيان كان يتشاجر مع الناس ويجبرهم على العودة رغم أنهم يسيرون فى الاتجاه الصحيح. كان الجيران يتدخلون لصالحه خوفًا وطمعًا فى سلطانه رغم أنه مازال ضابطًا صغيرًا.

قفلا عائدين بعد أن وصلا إلى نهاية الشارع. أمام باب العمارة نظر فى ساعته فوجدها التاسعة مساءً. التفت إليها وقال:

ـ اصعدى أنت وسأذهب أنا لمقابلة أحد أصدقائى فى المقهى.

ضحكت قائلة:

ـ أشعر كأنك طفل صغير يريد أن يذهب إلى كل مكان فى نفس الوقت.

ـ الحبس ثلاثة أيام شىء ممل جدًا.

اتجه إلى المقهى وهو يتمنى مقابلة صديقه وجاره «حسن». فى الحقيقة «حسن» ليس صديقًا مخلصًا وفيًا لكنه يمتاز بميزة مهمة جدًا، إنه مهرج خفيف الظل، يقضى معه ساعة أو ساعتين ثم يعود إلى بيته وهو يشعر بالألم فى بطنه من كثرة الضحك.

بحث عن «حسن» ولم يجده. الزحام شديد فى المقهى حتى أنه لم يجد لنفسه مقعدًا. سمع صوتًا يناديه، التفت ليجد جاره «محمود»، والد «صابرين»، يشير له بالجلوس على نفس المنضدة. جلس مضطرًا. لم يكن هو و«محمود» صديقين أبدًا فى يوم من الأيام. العلاقة بينهما لا تتعدى مجرد إلقاء التحية عندما يتقابلان مصادفة. بالرغم من هذه العلاقة البسيطة يعلم أن «محمود» خريج كلية العلوم قسم جيولوجيا. عمل فى ورشة والده للخراطة بعد التخرج وراح يبحث عن فرصة عمل

مناسبة فى تخصصه . مرت الأيام والسنون دون الحصول على عمل . بمرور الوقت توفى والده وأصبح هو صاحب الورشة . بالرغم من ضيقه من هذه المهنة إلا أنه يقول أن هذا أفضل من الجلوس مثل أصدقائه بلا عمل ، أصدقائه مازالوا يبحثون عن عمل رغم بلوغهم سن الأربعين .

جلس النقيب «عماد» فى ضيق ، راح يشرب القهوة فى صمت . فجأة ، التفت إليه «محمود» وقال دون أى مقدمات:

ـ هل تسمح لى بسؤال؟

ـ تفضل .

ـ أرجو أن يتسع صدرك للنقد .

تنهد النقيب «عماد» فى ضيق وقال مرة أخرى:

ـ تفضل .

اعتدل «محمود» فى مقعده ليكون مواجهًا له ثم قال:

ـ لماذا يتعمد رجال الشرطة إهانة الناس؟

التفت إليه وفى عينيه بريق التحدى وقال:

ـ لا أعتقد أن هذا يحدث .

قال «محمود» فى إصرار:

ـ بل هذا هو ما يحدث .

و راح «محمود» يقص عليه ما حدث . من المفروض أن يستخدموا إسطوانات الغاز الكبيرة فى الورش ، أما الإسطوانات الصغيرة ممنوعة منعًا باتًا . وفى ذات يوم ، لم يجد الإسطوانة الكبيرة . اضطر إلى إحضار الإسطوانة المنزلية الصغيرة ليتم عمله ويسلمه فى الموعد المحدد .

فوجئ بضابط الشرطة يهاجم الورشة برفقة بعض المخبرين. وضعوا الكلبشات فى يده وساقوه أمامهم إلى عربة الشرطة كأنه مجرم خطير. فى القسم، عندما أخبر الضابط أنه مرتبط بتسليم العمل فى موعد محدد ولم يجد الإسطوانة الكبيرة، انهال عليه المخبرون ضربًا وركلا كأنه فريسة وقعت بين أنياب وحوش مفترسة. قال النقيب «عماد» مدافعًا:

ـ من يخرج على القانون يستحق العقاب.

ـ يعاقبوننى لأننى لا أريد تأخير العمل؟

ـ يعاقبونك لأنك خالفت القانون.

إرتشف «محمود» كوب الشاى ثم قال:

ـ هل تعلم لماذا يجبروننا على استخدام الإسطوانات الكبيرة؟

التفت إليه النقيب «عماد» وهو يرقب اللحية الكثة المثيرة للإشمئزاز، ثم سأل فى صبر نافذ:

ـ لماذا؟

ـ لأن سعر الغاز فى الإسطوانات الكبيرة أغلى من الإسطوانات المنزلية المدعمة؟

برقت عينا النقيب «عماد» كأنه وجد الفرصة المناسبة للهجوم:

ـ الإسطوانات المنزلية مدعمة للإستهلاك المنزلى. لكن طالما أنك تعمل وتكسب فلابد أن تؤدى للحكومة حقها.

اعتدل «محمود» فى مقعده كأنه يستعد لإلقاء خطبة طويلة:

ـ ألا ترى أن هذا يتناقض مع تصريحات الحكومة المعلنة.

ـ كيف؟

ـ المسؤولون يصرخون كل يوم يطالبون بترشيد الاستهلاك وزيادة الإنتاج، لكنهم فى الحقيقة يدعمون المستهلك ويفرضون الأموال على المنتج.

قال النقيب «عماد» فى ضيق:

ـ فى جميع دول العالم، المُنتج يدفع الضرائب من أرباحه.

ـ للأسف، هذا لا يحدث إلا فى مصر. فى العالم المتقدم، المستهلك هو الذى يدفع الضريبة، أما المُنتج يحظى بالدعم والتشجيع.

تذكر النقيب «عماد» قول أحد المسؤولين فى أحد برامج التليفزيون منذ عدة شهور. قال فى تحد:

ـ لا تنكر أن المواطن الإنجليزى يدفع الكثير إذا أضاء لمبة واحدة دون داعى فى البيت. وهنا يضيؤن نجفات كبيرة دون داع لأن السعر هنا زهيد جدًا.

ـ هذا صحيح. لأنهم يعتبرون المنزل مستهلكًا، لكن الكهرباء زهيدة جدًا للمصانع لكى يساعدوها على الإنتاج.

نفذ صبر النقيب «عماد» فقال وهو يهب واقفًا:

ـ على كل حال، مهمة الشرطة تنفيذ القانون وليس مناقشة القانون.

٨

خرج من منزله فى السادسة صباحًا، لقد قرر استغلال الإجازة أفضل استغلال. الأحوال مضطربة، الأحداث سريعة متشابكة، لا أحد يعلم أبدًا ما سيحدث غدًا، ربما لن يستطيع الحصول على إجازة لمدة عدة أسابيع متواصلة.

اتجه إلى مقهى «المحروسة» القريب من المنزل لتناول القهوة قبل السفر. فى المقهى رأى عم «حلمى»، لم يندهش لوجود هذا العجوز فى المقهى فى هذه الساعة المبكرة. عم «حلمى» خرج إلى المعاش منذ حوالى عشر سنوات. فى كل أسبوع، يخرج مبكرًا مرتين أو ثلاثة لممارسة هوايته المفضلة فى صيد السمك. لا يصطاد إلا فى منطقة الإبراهيمية. يقول إنه تعلم الصيد هنا، لا يستطيع الخروج إلى الساحل الشمالى بالرغم من أن الصيد هناك أفضل كثيرًا وذلك لأنه لا يملك سيارة. يرفض دعوات الأصدقاء الذين يملكون سيارات ليذهب ويصطاد معهم هناك. يقول: الإبراهيمية هى ملعبى. هنا أعلم جحور الأسماك وأعلم أحوال البحر.

طلب فنجان القهوة ثم ألقى التحية على عم «حلمى» وجلس بجواره، ابتسم الرجل العجوز المجعد الوجه ثم قال:

ـ بصفتك ضابط شرطة، ما رأيك فيما يحدث؟

تنهد النقيب «عماد» وقال فى أسى:

ـ الأحداث كثيرة، ماذا تقصد بالتحديد يا عم «حلمى»؟

ارتشف عم «حلمى» كوب الشاى ثم قال:

ـ الثوار يهتفون بسقوط حكم العسكر.

ـ لقد قامت الثورة ضد حكم العسكر.

ـ هذا صحيح لكن لا أحد يستطيع أن ينكر أن المجلس العسكرى حمى الثورة.

ـ بالتأكيد.

التفت إليه عم «حلمى» ونظر إليه فى حنان أبوى:

ـ يا بنى، تخيل ما كان سيحدث لو أن الجيش أطلق النيران على الثوار، ستكون مذبحة مثلما يحدث الآن فى سوريا.

ـ بالتأكيد.

ـ أنت تقول ذلك رغم أنك غير مدرك حجم الكارثة، نحن نختلف عن سوريا، جيشنا كبير وعددنا ضخم، لو حدث أى اشتباك بين الناس والمجلس العسكرى ستكون مجزرة.

ـ أعلم ذلك، لكن هناك أخطاء كثيرة وخطيرة تحدث من المجلس العسكرى.

انفعل عم «حلمى» وقال:

ـ مهما كانت أخطائه وسلبياته يجب أن نشكرهم لأنهم جنبونا مذبحة سوريا، ألم تشاهد فى الجرائد صور أشلاء الجثث هناك.

بعضهم أطفال لا ذنب لهم. ما كل هذا الجبروت؟

ـ بالتأكيد، لكنى لا أفهم لماذا أطلقوا سراح «الزمر» وغيره من الإخوان المسلمين من السجون؟

أعاد عم «حلمى» كوب الشاى إلى مكانه ثم قال فى حزم:

ـ أعلم جيدًا أنهم يرفضون كل سبل النقاش ولا يخضعون إلا للمرشد.

ـ إذن أنت تتفق معى على خطورة الموقف.

ـ نعم لكن يجب الالتزام بالقانون. لقد قضوا فترة العقوبة ويجب أن يخرجوا من السجون. هذا هو القانون. هل تعاقبون المجلس العسكرى لأنه يلتزم بالقانون؟

ـ أجهزة الإعلام تبغى أن تجعل «الزمر» بطلًا لأنه شارك فى قتل «السادات».

ضرب عم «حلمى» قدمه فى حسرة وقال:

ـ «السادات»، رحمه الله، كان أذكى حاكم لمصر.

التفت النقيب «عماد» إلى عم «حلمى» وراح يرقبه بحذر. كل الناس تعلم أن عم «حلمى» يمتلك مكتبة خاصة كبيرة. إنه قارئ جيد، مثقف واع. بالإضافة إلى أن خبرات السنين أصقلت ثقافته وأضافت إليه نضجًا ملحوظا وعقلًا راجحًا. قال النقيب «عماد» فى حذر:

ـ المشكلة الآن ليست فى مقتل «السادات».

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أن الناس تعتقد أن المجلس العسكرى يهددهم. إما حكومة

دينية متشددة ترفض كل مظاهر التقدم أو حكومتهم العسكرية.

ـ ربما.

شعر النقيب «عماد» بالثقة لموافقة عم «حلمى» على رأيه، فأكمل:

ـ هذه هى سياسة «مبارك». لذلك يؤكد الثوار أن «مبارك» مازال يحكم حتى الآن.

فكر «حلمى» قليلًا ثم قال:

ـ أنا لا أعتقد ذلك. المجلس العسكرى يحاول الالتزام بالقانون وتهدئة الثوار والخروج من الأزمة بأقل خسائر ممكنة.

ـ أتمنى ذلك.

ابتسم عم «حلمى» وهو يربت على يد النقيب «عماد» ويقول:

ـ لا تقلق. القادم سيكون أفضل إن شاء الله.

انصرف النقيب «عماد» ليستقل القطار المتجه إلى «طنطا»، مسقط رأس العميد «البهنساوى» حيث يمتلك العمارة التى ورثها عن والده. إنه يفتخر كثيرًا بهذه العمارة الصغيرة. يذهب إلى هناك من حين لآخر ليستعيد ذكريات الطفولة والشباب. ربما يكون قد ذهب للإقامة هناك فى مسكنه القديم. إنه يؤكد أنه يشتم رائحة والده فى هذه الشقة الرحبة رغم مرور سنوات طويلة على وفاته. هذا هو ما يجعله يرفض بيع هذه العمارة رغم أن الإيجار الذى يحصل عليه لا يتعدى ستة وثلاثين جنيهًا فى الشهر، أى لا يزيد على ثمن خمس علب سجائر. كثيرًا ما كان يردد: «عبد الناصر» حدد الإيجارات الزهيدة ومنع المالك من حرية التصرف فى ملكه. وهذا ما جعل الناس تمتنع عن البناء والإيجار. ثم جاء «السادات» بأفكاره الانفتاحية ودفع الناس إلى بيع الشقق بأسعار

خرافية. ثم يضحك ساخرًا وهو يقول: كل يسير على هواه وفقًا لمعتقداته الشخصية دون أن يهتم برأى الآخرين ودون أن يهتم بالعواقب التى ستحدث بعد ذلك.

عندما وصل إلى باب الشقة أُصيب بالإحباط. التراب الكثيف يدل على أن العميد ليس هنا. بالرغم من ذلك ضغط على الجرس وهو يحاول أن يُكذب ظنه. وقف صامتًا برهة دون أن يُفتح الباب. استدار وضغط جرس الباب المقابل. إنه جاره «منصور». لقد التقى هذا الشاب عدة مرات أثناء زيارة العميد.

فتح «منصور». تهللت أساريره وهو يرحب به ويدعوه للدخول. جلس النقيب «عماد» على الأريكة المتهالكة وهو يسأل عن العميد. أكد «منصور» أنه لم يره منذ عامين تقريبًا. وأكد رغبته الجارفة فى رؤية هذا الرجل. إنه رجل طيب جدًا، مسالم جدًا. كانت العلاقة طيبة بين العميد ووالده. لم يكن يستغل نفوذه مثل بقية الضباط.

كان والد «منصور» هو المستأجر الحقيقى للشقة. على حسب القانون الجديد، يستطيع العميد طرد «منصور» من الشقة بسهولة بعد وفاة والده ثم يبيعها بعد ذلك بمبلغ ضخم يكفى لإقامة مشروع صغير لتأمين مستقبل «هانى» ابنه الوحيد. فى هذه الحالة، عادة، يحدث صراع عنيف بين المالك وابن المستأجرالمتوفى. عندما شعر «منصور» بدنو أجل والده أتى بزوجته وأولاده ليقيم هنا من أجل الاستيلاء على الشقة. كان يرتجف من سلطة العميد، خاصة بعد وفاة والده. شعر العميد بالخدعة. رغم أن هذا يسبب له خسارة كبيرة إلا أنه لم يدخل معه فى أى نزاع. وفى يوم وفاة الوالد أتى على الفور ليكون بجوار «منصور» ويشد من أزره. بعد مراسم الجنازة احتضنه وأكد له أنه لن يطرده أبدًا من الشقة. علاقة الجوار الطويلة مع والده تمنعه من فعل

ذلك ، ومن ناحية أخرى هو يعلم جيدًا الحالة الاقتصادية الرهيبة التى يعانيها الشباب . لا داعى لكل هذه الألاعيب .

ابتسم النقيب «عماد» وهو يسمع هذه القصة . إنه واثق من طيبة ونقاء العميد بالرغم من انضباطه العسكرى الحديدى . أبلغ «منصور» عن اختفاء العميد بعد الثورة وهو يحاول البحث عنه فى كل مكان . قال «منصور» وهو يفكر بجدية:

ـ لا أعتقد أن مثل هذا الرجل يهرب من شىء .

ـ أين ذهب إذن؟

ـ أمر غريب حقًا .

انتفض النقيب «عماد» فى جلسته وهو يسأل:

ـ هل تعتقد فى وجود أعداء لسيادة العميد؟

أجاب «منصور» فى ذهول:

ـ مستحيل .

فكر مليًا ثم انتفض وهو يقول:

ـ ربما . . . ممكن .

و راح «منصور» يقص عليه ما حدث منذ ثلاثة أعوام . كان عائدًا إلى بيته ، وهو على باب العمارة رأى رجلًا طويلًا بدينًا يسأل عن العميد ، قبل أن يخبره أن شقة العميد فى الطابق الثانى سأله عن اسمه ، فقال الرجل:

ـ أنا المستشار «سعيد عبد الحى» ويجب أن أتحدث معه فى موضوع مهم جدًا .

اصطحبه إلى باب شقة العميد. لاحظ على ملامح العميد عدم الارتياح، ندم فى هذه اللحظة على أنه أوصل المستشار إلى العميد. لكن ماحدث قد حدث.

اختفى العميد والمستشار داخل الشقة وعاد «منصور» إلى شقته وهو يشعر بالإحراج والارتباك. شعر أنه وضع العميد فى مأزق. بعد حوالى ساعة سمع صياح كل من العميد والمستشار، كل منهما يهدد الآخر بالانتقام. اتجه إلى شقة العميد محاولًا الصلح بينهما أو حل المشكلة، قد يكون الموضوع بسيطًا. فى عتبة السلم رأى المستشار «سعيد» وهو يخرج من الشقة وهو يهدر مثل الأسد قائلًا:

ـ لن أتركك أبدًا تنعم بنفوذك.

٩

عندما خرج من باب العمارة، شعر بعيون «نهال» ترقبه من شرفتها. أسرع فى الخطوات متجهًا نحو المقهى كأنه يهرب من شىء ما.

بعد إصابته فى المشاجرة مع الشاب الملتحى، أصبحت الأم شديدة القلق على ابنها. إنها مطمئنة على ابنها الأكبر الذى يعيش فى إحدى دول الخليج برفقة زوجته وابنه الصغير. لكن كيف تطمئن على ابنها الصغير الذى يعيش بمفرده فى القاهرة. إنه ضابط شرطة والناس ثائرة ضد الشرطة. طلبت منه السعى من أجل النقل إلى الإسكندرية. إنه يعشق الإسكندرية لكنه يعلم جيدًا صعوبة النقل فى مثل هذه الظروف المضطربة. استنجدت والدته بـ «نهال» من أجل إقناعه بالنقل، راح يسخر من والدته ويؤكد لها أنه لم يعد الطفل الصغير المدلل. لقد أصبح ضابطًا كبيرًا مسؤولا والضابط لا يهرب أبدًا من المسؤولية. حاولت «نهال» إقناعه بالنقل لأن أمه تعيش بمفردها، فالتفت إليها وراح يحدثها بلغة الأبطال وهو يؤكد لها أن النقل لا يتم إلا بعد موافقة قائده المباشر. وقائده لن يوافق على نقله أبدًا لأنه يعتمد عليه فى أمور كثيرة بعد أن لاحظ ذكائه وخبرته وجرأته فى المواجهة. فى مثل هذه الظروف المضطربة يفضل القادة التعامل مع الضباط الأكفاء الذين يعلمونهم جيدًا عن التعامل مع ضباط جدد لا يعلمون عنهم شيئًا.

فى صباح اليوم، بينما كان يجلس مع «نهال»، ينعم بصوتها العذب الذى ينسكب بداخله ألحانًا رائعة. دخلت الأم لتقدم له الدواء وهى تقول:

ـ سأتحدث مع اللواء «عادل» من أجل نقلك. إنه لا يرفض لى طلب.

فارت الدماء فى وجهه رغمًا عنه. يعلم جيدًا أن والدته على علاقة طيبة مع اللواء «عادل» وزوجته من خلال نادى الشرطة، ويعلم جيدًا مدى عناد أمه وتعلقها به خاصة بعد سفر أخيه الأكبر. غالبًا ستنجح فى هذه المهمة وسيبدو مظهره ضعيفًا أمام «نهال». إنه يسعى بكل الوسائل لإثبات بطولته وجديته ونبل أخلاقه، يسعى من أجل أن يثبت لها تقدير قائده لخبراته وذكائه ودقة عمله. والآن سيصبح أمامها مثل الولد المدلل الذى يعيش فى حماية والدته. يريد أن يثبت لها أن الناس تحتمى به. كيف سيفرض عليها حمايته وهو يعيش فى حماية والدته؟

انفجر فى عصبية وراح يؤكد لأمه أنه لن يسمح لأحد بالتدخل فى عمله. غضبت الأم وخرجت من الحجرة تبكى. وراحت «نهال» تلومه بعنف على إغضاب والدته. طلبت منه أن يذهب إليها ويعتذر لها لكنه أصر على موقفه قائلا فى تحد:

ـ هذا عملى وأنا أدرى الناس به.

بدّل ثيابه وخرج مسرعًا متوجهًا إلى المقهى. لقد اهتزت صورته فى عينىّ «نهال». بالتأكيد، لا تعتبره مدللا فقط، بل ابن عاص يغضب والدته العجوز.

فى المقهى، وجد صديقه وجاره «حسن» فابتسم. أدرك أن الأمسية ستكون كوميدية ساخرة. كان «حسن» يتحدث فى التليفون

المحمول، يقول لمحدثه إن هذا المشروع سيتكلف نصف مليون جنيه على الأقل. بعد أن أنهى المكالمة التفت إلى النقيب «عماد» وقال:

ـ إنه «السيد أبو سيف». يريد إقامة حمام سباحة فى فيلته فى «كينج مريوط». ثمن الفيلا لا يقل عن خمسة ملايين جنيه وهو يُصر على أن أقوم أنا بإنشاء حمام السباحة.

ضحك النقيب «عماد» رغمًا عنه. الجميع يعلم أن «حسن» يحب التحدث بلغة الملايين بينما هو فى الحقيقة لا يملك إلا الملاليم. لم يشعر «حسن» بالحرج من سخرية صديقه بل قال مبررًا:

ـ ماذا أفعل؟ يجب أن ألقط رزقى من أمثال هؤلاء اللصوص الكبار.

فى هذه اللحظة، مرت أمامهما فتاة جميلة تتمايل بملابس ضيقة تكشف كل تفاصيل جسدها. رماها «حسن» بنظرات جائعة فقال النقيب «عماد» مازحًا:

ـ سأخبر خطيبتك.

مد «حسن» يده اليمنى، لم يكن بها خاتم الخطبة. هتف النقيب «عماد» فى دهشة:

ـ مجنون! فسخت الخطبة بعد ثلاث سنوات؟

ـ لا يوجد حل.

إكتست ملامح وجه «حسن» الممتلئ بالجدية ثم قال:

ـ عندما خطبتها منذ ثلاث سنوات، كنت أعمل مندوب مبيعات في مصنع جوارب. كان المرتب صغيرًا والعمولة قليلة، لكن، على الأقل، هناك دخل. كان لدىّ أمل فى العثور على شقة صغيرة فى

أطراف المدينة. والآن أُغلق المصنع وأصبحت بلا عمل. كيف أتزوج؟

ـ لماذا أُغلق المصنع؟

ـ صاحب المصنع يصرخ من ارتفاع أسعار القطن وركود السوق.

قال النقيب «عماد» فى استياء:

ـ المصريون يرغبون فى النجاح بسهولة. لا يوجد شىء سهل فى هذه الحياة.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لماذا لم يسع إلى التصدير. القطن المصرى مشهور.

التفت «حسن» يرقب فتاة أخرى جميلة ثم قال:

ـ حاول. لكنه فشل.

ثم راح يقص عليه ماحدث منذ عامين. أعلنت وزارة الصناعة عن إقامة معرض خاص من أجل التصدير فى ألمانيا. على حسب الشروط، كان يجب تسليم العينات إلى الشركة المنظمة التى ستقوم بتسليم العينات هناك. حجز صاحب المصنع مساحة صغيرة بسعر ضخم بالإضافة إلى تكاليف السفر والإقامة هناك، افُتتح المعرض وانتهى ولم تسلمهم الشركة المنظمة العينات. ضاعت الفرصة وعاد صاحب المصنع حزينًا على النفقات الضخمة التى خسرها. قال النقيب «عماد» فى حماس:

ـ كان يجب عليه أن يقاضى الشركة المنظمة.

قال «حسن» ساخرًا:

ـ يا صديقى، أنت فى مصر.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أصحاب الشركة المنظمة مجموعة صغيرة جدًا من المسؤولين الكبار. لا أحد يستطيع مقاضاتهم.

ـ يعنى لا يوجد أى فرصة للتصدير.

قال «حسن» مؤكدًا:

ـ لا يستطيع التصدير إلا عدد قليل جدًا من المسؤولين، لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة.

ـ لا أمل إذن.

ـ يا صديقى، لقد قامت الثورة من أجل ذلك.

ضحك النقيب «عماد» قائلًا:

ـ أنت ثورجى إذن؟

قال «حسن» مؤكدًا:

ـ طبعًا! أصبحت فى الأربعين من العمر، لا أجد عملا ولا أمل فى الزواج.

ـ هل خرجت فى المظاهرات فى ميدان مسجد القائد «إبراهيم»؟

ـ لا طبعًا.

ـ لماذا؟

أجاب «حسن» متصنعًا لهجة الفلاسفة:

ـ لأنى لا أعتقد فى وجود حل لمشاكلنا سوى قنبلة ذرية تبيد كل المصريين ثم نبدأ من جديد.

قطب جبين النقيب «عماد» وقال فى إزعاج:

ـ ما كل هذا اليأس؟

ـ إنها الحقيقة.

هب «حسن» واقفًا فى ضجر وهو يقول:

ـ هيا بنا نتجول فى السوق.

راح الصديقان يتجولان فى شارع «لاجيتيه». دخلا أحد المراكز التجارية المنتشرة. بجوار بوابة المركز، دفعه «حسن» إلى المحل الأول على اليسار. دخلا معًا، ألقى «حسن» بالتحية على صاحب المحل وقدمه إلى صديقه وهو يقول صديقنا وجارنا «مينا». ذُهل النقيب «عماد» من الاسم. الاسم وكلمة (و لتكن مشيئة الرب) المعلقة على مدخل المحل يؤكدان أنه مسيحى. بالرغم من ذلك المحل مخصص لبيع الطرح والعبايات والنقاب للمسلمين. معه حق إنها موضة العصر.

أكمل الصديقان تجوالهما فى المركز. ثم أشار «حسن» إلى أحد المحلات. اسم المحل «قبلة». ثم أشار إلى السيدة الجالسة بداخل المحل وهو يقول: إنها صاحبة المحل. السيدة منتقبة حتى أنه لا يعرف إن كانت رجلا أو امرأة أو شبحًا مخيفًا. المحل محاط بصور فتيات عاريات، مخصص لبيع الملابس الحريمى الساخنة. امتعض النقيب «عماد» من هذا التناقض الغريب. فقال «حسن»:

ـ لا تندهش يا صديقى. الكل يتاجر بالدين ولا أحد يتق الله.

قبل أن يرد عليه، سمعوا صوت فرقعات. صرخ البعض يطمئن الناس: إنها مجرد ألعاب نارية. صرخ آخرون: إنها مسدسات صوت فقط. والبعض الآخر يؤكد أنها ذخيرة حية. دب الهرج والمرج. جرى العمال يغلقون أبواب المركز الحديدية. جرى الناس فى كل الاتجاهات لا يعرفون إلى أين يذهبون. لا يعرفون ما الذى يحدث.

صرخ الأطفال وولول النساء. كانت هناك طفلة صغيرة لا يتعدى عمرها الثلاث سنوات، تصرخ وهى تدس رأسها بين ساقى أمها كأنها تريد العودة إلى الرحم مرة أخرى.

١٠

قُبيل الغروب، يبدو الفنار القديم، وسط البحر، متهالكًا. يبدو أنه بسبب الوحدة والإهمال أصبح عاجزًا عن الصمود أمام أمواج البحر العاتية المتعاقبة على مر السنين. بالرغم من ضوء الشمس إلا أنه يبدو من الداخل معتمًا فيبعث فى النفس الشعور بالوحشة.

هذا هو المكان المُفضل الذى يلجأ إليه النقيب «عماد» كلما ضاقت به الدنيا. لم يكن يتخيل أبدًا أن يكون لـ «نهال» كل هذا التأثير فى حياته.

بعد أن تشاجر مع والدته منذ يومين، أمامها، بدأت تُغير معاملتها له، كأنها تعامله باستعلاء، أو احتقار لعقله وأفكاره. يعلم جيدًا أن دارسى الفلسفة يفكرون بطريقة مختلفة تمامًا عن بقية الناس.

اعتملت بداخله غريزة الصياد. قرر مطاردتها فى كل زمان ومكان بهدوء وصبر وحكمة حتى ترضخ له ويمتلكها.

بالأمس، ذهب إليها فى الجامعة. زاغت أبصاره ودارت رأسه بحثًا عنها بين حشود الطلاب والطالبات. فى النهاية لمحها من بعيد. كانت تجلس بجوار شاب وسيم على أحد المقاعد الحجرية. بالرغم من أنه لم يعلم من هو هذا الشاب إلا أن صبر الصياد نفد فجأة وتقدم نحوهما متحفزًا.

ابتسمت عندما رأته، قدمت له زميلها «إيهاب» الذى يكبرها بعامين وقدمته لزميلها وهى تقول:

ـ النقيب «عماد» ضابط شرطة.

اندفع «إيهاب» مهاجمًا:

ـ أين أنتم؟ لماذا تتركونا للبلطجية؟

نفخ النقيب «عماد» صدره وهو يشعر بأهمية الشرطة ثم قال:

ـ إطمئن، سنعود قريبًا.

إندفعت «نهال» تقول فى غضب:

ـ البلطجية يفرضون سيطرتهم على الجميع وأنتم لا تحركون ساكنًا.

قال النقيب «عماد» بفخر لأنه عثر على الحجة المنطقية ليرد بها على دارسى الفلسفة:

ـ أقسام الشرطة احترقت، والمساجين هربت، لا بد من التعامل بحكمة وحذر.

وافق «إيهاب» لكن «نهال» هاجمت:

ـ ألم تر ما حدث بالأمس. طلقات نارية فى شارع «لاجيتيه» والناس تجرى فى فزع، هل تعجبك هذه الأوضاع؟

انضم إليها «إيهاب» فى الهجوم وهو يقول:

ـ البعض يرى أن الشرطة تنتقم من الشعب.

أكد لهما النقيب «عماد» استحالة هذه الفكرة. عدّل من هندامه وراح يقص عليهما بهدوء تفاصيل ما حدث. أحد المقاولين استولى على

قطعة أرض وراح يحفر الأساسات. حاول أصحاب الأرض الحقيقيون استعادتها لكن المقاول كان قد استأجر أكثر من عشرين بلطجيًا، ولجأ أصحاب الأرض إلى البلطجية أيضًا، واشتبكوا مع بعضهم البعض. سأل «إيهاب» فى فزع:

ـ وما كل هذا السلاح الذى فى أيدى الناس؟

ابتسم النقيب «عماد» فى ثقة وهو يشعر كأنه قائد الشرطة فى عصر المماليك:

ـ أحرقوا الأقسام واستولوا على السلاح، حطّموا بعض السجون واستولوا على السلاح، هذا بالإضافة إلى السلاح المُهرب من ليبيا وإسرائيل.

ـ وكيف ستتعاملون مع هذا الوضع؟

ـ هناك خطة أمنية للسيطرة على الموقف بالعقل والحكمة.

اعتقد أن كلمتى (العقل والحكمة) قد يكون لهما تأثير على دارسى الفلسفة، لكن فوجئ بـ «نهال» تقول:

ـ أى عقل وأى حكمة؟ الناس تطالبكم بالنزول للشارع وأنتم لا تتحركون.

و أكمل «إيهاب»:

ـ واضح إنها عملية انتقام من خلال إطلاق سراح البلطجية.

شعر بالدماء تفور فى وجهه لكنه قال وهو يحاول الابتسام فى هدوء:

ـ هناك أسرار لا أستطيع التحدث عنها.

ثم استدرك مداعبًا:

ـ ألن تعزمونى على فنجان قهوة؟

قالت «نهال» وهى تنصرف:

ـ لدىّ محاضرة الآن.

وجد نفسه وحيداً مع «إيهاب.» استأذن منه وانصرف.

منذ هذه اللحظة قرر ألا يفكر بها أبدًا. لا يلهث وراء الأوهام والأحلام إلا الحمقى والأغبياء وهو لا يحب أن يكون كذلك. لا يجب أن يكون ضابط الشرطة بمثل هذا الغباء. هذا ما تعلمه على يد أستاذه العميد «وليد البهنساوى». حقًا، دارسو الفلسفة يفكرون بطريقة مختلفة. الفلسفة تؤثر فى عقولهم وتشتت أفكارهم، الفلسفة تجعلهم يخلطون الأمور ببعضها البعض رغم أنهم يدعون أنهم يفصلون الأمور بعضها عن البعض. ما هذا العلم الغريب الذى لا طائل من ورائه.

فى مساء نفس هذا اليوم، وهو على عتبة النوم ضبط نفسه وهو يفكر بها. أدار رأسه إلى الجهة الأخرى محاولا طردها من داخله. ثم غط فى نوم عميق منهكا. لقد أمضى فترة بعد الظهر كلها فى السير على شاطئ البحر.

إستيقظ منتفضًا فى الثانية صباحًا. لقد رأى نفس هذا الشاب الأسمر الذى أنقذه يوم الثورة. كان الشاب يبتسم له مداعبًا وهو يربت على كتفه فى حنان صادق. يبدو أن هذا الأسمر هو جزء منه، داخل فى تكوينه النفسى ولا يستطيع طرده مثلما قرر طرد «نهال» من حياته.

فى الصباح، استيقظ مرهقًا، شعر بألم شديد مكان الجرح وراح يحلم بوجود «نهال» و«صابرين» بجواره مثلما كان يحدث منذ يومين فقط.

عاد إلى وعيه فجأة. برقت عيناه ببريق التحدى والعناد. اختفى الألم وهب واقفًا فى نشاط. ووجد نفسه يجلس هنا أمام الفنار القديم.

لا أحد يستطيع انتشاله من هذه الوحدة سوى صديقه وجاره المرح «حسن». اتصل به على الفور واتفقا على اللقاء بعد ساعتين فى المقهى.

فى طريق العودة، كانت السيارات تتكدس تحت النفق. علم من ركاب السيارات المجاورة أن الثوار يتجمعون حول قسم باب شرق. لقد صدر بالأمس الحكم ببراءة بعض الضباط الذين أطلقوا النار على الثوار وراح الثوار يصرخون ويهتفون بسقوط حكم العسكر، سقوط الجيش. التفت إلى السيارة المجاورة، رأى على المقعد الخلفى طفلين دون العاشرة من العمر، سعيدان مبتهجان بهذا الجو المثير. ابتسم لهما وهو يحسدهما على هذه البراءة. سأل الرجل الذى يجلس خلف المقود: ما ذنب الجيش؟ فراح الرجل يرغى ويزبد فى غضب. «مبارك» أسند الحكم إلى المجلس العسكرى والمجلس برأ الضباط تمهيدًا لتبرئة «مبارك» نفسه. إنها عصابة منظمة.

لم يقنع بحديثه. الجيش رفض إطلاق النار على الثوار منذ أول لحظة ولهذا هتف الناس يحيون الجيش. ما الذى يحدث؟ يبدو أن هناك يدًا خفية تعبث فى نفوس الناس. يد خفية؟! إنها أياد كثيرة خفية؟ تبحث عن مصالحها، والشعب المصرى مثل هذان الطفلان السعيدان بالإثارة.

من الممكن استكمال النفق ليصل إلى شارع الترام ثم إلى المقهى متلافيًا المرور أمام قسم باب شرق. لكنه أصر على الصعود من النفق فى شارع أبو قير ليرى ما يحدث.

عندما وصل إلى القسم ذُهل مما يحدث. كان يبحث عن قادة الثورة من أمثال هذا الشاب الأسمر. لكنه رأى القادة، الآن، يختلفون

تمامًا. يطلقون اللحية الكثة الطويلة فى إهمال، الغضب يتطاير من عيونهم، يصرخون فى حنق ضد العسكر. يثيرون الناس ضد سحرة فرعون الكفار وهم يشيرون إلى القسم. الثوار، أيضًا، يختلفون عن ثوار ميدان التحرير. إنهم مجموعة من البلطجية يقبضون بأيديهم على زجاجات المولوتوف. كل واحد يمسك بأربع زجاجات فى اليد اليمنى وأربع آخرين فى اليد اليسرى. ما أن أشار القادة إلى القسم حتى تطايرت زجاجات المولوتوف ودب الحريق وصرخ الأطفال.

وصل إلى المقهى بعد أربع ساعات، رأى الجميع يصرخ بشدة ويتناقش بحدة. البعض يدافع عن الجيش الذى رفض الاشتباك مع الثوار والبعض يُحمل الجيش مسؤولية تبرئة الضباط.

رأى عم «حلمى» يجلس فى أحد الأركان بجوار صديقه «حسن». اتجه إليهما. كان عم «حلمى» يقول:

ـ القاضى لا يحكم إلا من خلال الأوراق والمستندات فقط، إن لم يجد القاضى دليلا على الاتهام يحكم ببراءة المتهم حتى لو كان واثقًا من إدانته.

هذا الرأى لم يقنع «حسن» الذى هب مدافعًا عن الثوار، لكن عم «حلمى» قاطعه قائلا:

ـ هل تعلم أن أهل «أحمد صلاح» يعتبرونه شهيدًا ويطالبون بالقصاص.

ضحك النقيب «عماد» رغمًا عنه. الجميع يعلم أن «أحمد صلاح» يكتسب رزقه من البلطجة. الجميع يعلم أنه أحد المستأجرين من المقاولين ولصوص الأراضى. هل هذا شهيد؟ وبالرغم من ذلك اندفع «حسن» ثائرًا:

ـ وبالرغم من ذلك هناك شهداء حقيقيون، معظمهم من الشباب المثقفين، ولابد من القصاص.

قال عم «حلمى» بهدوء:

ـ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وينعمون بالجنة، و«أحمد صلاح» ليس شهيدًا. ما كل هذا الخلط؟

دار الحديث طويلا بينهما لكن النقيب «عماد» لم يسمع إلا بضعة كلمات متطايرة. لقد دب الأمل فى نفسه. لم يذكر أحد اسم العميد «وليد البهنساوى» ضمن الضباط الذين أطلقوا النار على الثوار، والآن المحكمة برأتهم. ربما يعود العميد «وليد» اليوم أو غدًا.

ظل يحاول الإتصال به طوال اليوم التالى على التليفون المحمول والأرضى دون جدوى. بالرغم من ذلك لم يشعر باليأس. لا بد من استكمال البحث.

١١

ابتسم فى سخرية وهو يؤكد أن رجال القانون لا يخرقون القانون أبدًا. من خلال تمثال العدالة الكبير البراق خلف مكتب المستشار «سعيد عبد الحى»، أدرك أنه رجل شديد الحرص حازمًا. من خلال الكتب الكثيرة على الأرفف ذات الأغلفة السميكة أدرك أن ذكاءه قد يصل إلى حد المكر والدهاء. راح النقيب «عماد» يبحث عن الكلمات المناسبة لمحاورة هذا الداهية، ثم قال بحرص شديد:

ـ من الممكن أن يستغل الإنسان القانون لتدمير إنسان آخر.

نفخ المستشار «سعيد» دخان السيجار الكثيف ثم قال:

ـ ممكن طبعًا، لكنى لست من هذا النوع.

ثبّت النقيب «عماد» نظراته فى عينىّ المستشار كأنه يواجه متهمًا:

ـ هناك من يؤكد أنك هددت العميد «البهنساوى» وتوعدته بالانتقام.

بدا على المستشار أنه لا يذكر شيئًا، يا له من ماكر خبيث. اندفع النقيب «عماد» مؤكدًا التهمة:

ـ منذ ثلاث سنوات. فى «طنطا».

ضحك المستشار ثم قال:

ـ نعم. هذا حدث فعلا.

شعر النقيب بنشوة الظفر مخلوطة بخفقة فى القلب لهفة على العميد:

ـ وأين سيادة العميد الآن؟

ـ لا أعرف.

ـ ولماذا توعدته بالانتقام؟

ربت المستشار على يد النقيب برفق وهو يقول:

ـ لأنه يستحق الانتقام.

ثم راح يقص عليه ما حدث.

فى عام ٢٠٠٥ كنت أحد المشرفين على انتخابات مجلس الشعب. لاحظت، كما لاحظ كل المشرفين، أن التزوير هذا العام فاق كل الحدود. الناس تتهم القضاة بالتدليس من أجل الحزب الوطنى، والإعلاميون والصحفيون يتهمون القضاة بأنهم يعدون القوانين والمواثيق ويخلطون الحقائق من أجل توريث الحكم لـ «جمال مبارك». لكن فى هذا العام كان التزوير غليظًا فظًا، مفضوحًا بطريقة مبالغة. بصفتى رجل قانون كنت أعلم أنا وبقية زملائى أن «مبارك» وحاشيته لا يأبهون بمصالح البلاد ولا يهتمون برأى الناس، وربما لا يهتمون برجال القانون أيضًا. لكنهم كانوا يلتفون حول القانون، يتلاعبون به مثلما يلعب الأطفال بكرة القدم. هذا التلاعب يعنى، على الأقل، أنهم يحترمون القانون. لهذا كان لدى معظمنا بعض الأمل فى الإصلاح بهدوء. لكن ما حدث فى هذا العام كان استهتارًا بالقانون نفسه واستخفافًا

بكل رجال القانون ، سواء القضاء أو رجال الشرطة . كل هذا من أجل توريث الحكم لـ «جمال مبارك» . رفضنا أن تكون مصر عزبة تُورث . لهذا قرر بعض القضاة إعلان التزوير . كنت واحدًا من الذين أعلنوا وأكدوا التزوير . لم يهتم الإعلاميون والصحفيون بحديثى لأننى كنت أعمل وقتها فى الصعيد . وللأسف ، كل المصريون يعتبرون أن الصعيد هو المنفى . لكنهم اهتموا بزملاء آخرين . هذا لا يضايقنى لأننى لا أبحث عن الأضواء والشهرة . أنا أحب العيش فى هدوء وإستقرار ، وربما كان هذا سبب سعادتى أثناء عملى فى الصعيد .

بعد عامين ، فوجئت بالقبض على ابنى «أيمن» بتهمة الاشتراك فى حفل لعبادة الشيطان فى الصحراء . عندما ذهبت لاستطلاع الأمر التقيت العميد «البهنساوى» ، كان هو المكلف بهذه القضية وهو الذى قام بعملية القبض . طلبت منه مقابلة ابنى لمعرفة الحقيقة . عندما التقيت ابنى فى الحجز علمت منه أنه كان بصحبة مجموعة من أصدقائه يحتفلون بعيد ميلاد أحدهم فى الفيلا التى يمتلكها والده فى بداية الطريق الصحراوي .

من خلال ابنى وأصدقائه علمت أن معاونى العميد «البهنساوى» ، أثناء مداهمتهم للفيلا ، وضعوا صورًا غريبة غامضة على الجدران وصوروها بالفيديو . ثم حملوا هذه الأشياء الغريبة فى العربات وألقوا القبض عليهم واتهموهم بعبادة الشيطان .

واجهت العميد بالحقيقة ، لكنه أنكر بشدة واتهمنى بالإهمال فى تربية ابنى . مع العلم أن ابنى شاب مستقيم جدًا أكثر من اللازم . كان مستقيمًا جدًا لدرجة السذاجة ، لا يعلم شيئًا فى هذه الدنيا سوى عمله فقط . على فكرة أنه طبيب أشعة فى المستشفى الحكومى . طلب منى بعد التخرج أن أتوسط له لكى يعمل فى مستشفى استثمارى من أجل الراتب الكبير لكنى رفضت بشدة .

عندما تأكدت أن ابنى أصبح جادًا ملتزمًا أكثر من اللازم، أصبحت أنا الذى أدفعه ليقوم ببعض مغامرات الشباب التى تعرفها. يجب أن يتعلم فن الحياة وفن التعامل مع الناس وخصوصًا التعامل مع النساء. لكنه للأسف لم يستطع. المثل يقول (من شب على شىء شاب عليه) . بعد كل هذا الالتزام أصبح «أيمن» متهمًا بالسكر والعربدة وعبادة الشيطان.

علمت من بعض زملائى أن هذه القضية إنتقامًا منى لأننى اعترفت بالتزوير. لجأت للعميد «البهنساوى» طلباً للمساعدة. إنه يعلم تمامًا أن ابنى برىء. لكنه رفض مؤكدًا لى أنها أوامر عليا ولايستطيع رفضها، فتوعدته بالانتقام.

خرج ابنى من القضية لأن القانون يكفل حرية العبادة. لا أنكر أن بعض زملائى تعاطفوا معى وعاونونى. لا أنكر أننى حاولت استغلال نفوذى للانتقام من العميد «البهنساوى». كنت أحاول فصله عن طريق إثبات تلفيق القضية. لكنى للأسف لم أنجح فى ذلك. لكن مجهوداتى نجحت فى نقله من مدير مباحث العاصمة إلى الأمن المركزى.

عاد النقيب «عماد» إلى الإسكندرية خائبًا يائسًا. كان يأمل فى معرفة مكان الأب الروحى العميد «البهنساوى» من خلال المستشار «سعيد». لكنه يؤكد أنه أصبح لا يعلم عنه شىء بعد نقله إلى الأمن المركزى.

عندما دخل شقته رأى «نهال» تجلس مع والدته. على الفور، هنأته والدته وأخبرته أنها نجحت فى نقله إلى الإسكندرية. وقالت «نهال» مبتسمة:

ـ هذا أفضل لكى تكون بجوارنا.

ألقى بكل ثقله على المقعد وهو يثبت عينيه فى عينيها ويشعر

بالارتياح. بالرغم من الإنهاك والتعب، بالرغم من اليأس، إلا أنه سعيد بعودتها لزيارة والدته بعد أن انقطعت هذه الزيارات لعدة أيام. سعيد بترحيبها بعودته إلى الإسكندرية لكى يكون قريبًا منها. هل هى فعلا تتمنى القرب منه؟

و كانت «نهال» تنظر إليه فى شفقة وقلق. لقد علمت من والدته أنه سافر إلى القاهرة بحثًا عن أى أخبار عن العميد «البهنساوى». من الواضح أنه لم يستطع الوصول لشىء. تشفق عليه من البحث المضنى والأفكار المضطربة. تعلم جيدًا أنه يفكر بها، لكنها لا تعلم إن كان يحبها حبًا حقيقيًا أم مجرد الرغبة فى الامتلاك فقط. بعد أن علمت منه ما حدث فى القاهرة سألته سؤالا غريبًا:

ـ هل للعميد «البهنساوى» مغامرات عاطفية؟

نظر إليها مندهشًا وهو يقول:

ـ مستحيل! سيادة العميد جاد ملتزم.

ثم اعتدل فى جلسته وهو يقول:

ـ ربما . . . ممكن.

ثم ضحك فى خجل:

ـ هل هذا صحيح؟

قالت «نهال»:

ـ ما هو الصحيح وغير الصحيح. أنا لا أفهم شيئًا.

فقال وهو يضحك فى خجل:

ـ «هانى»، ابن سيادة العميد، كان يشك فى وجود علاقة غرامية

بين أبيه وزميلته «شاهيناز». أعتقد أنه كان يمزح. هذا مستحيل، إنها فى سن ابنته.

فقالت «نهال» مازحة ساخرة:

ـ نادرًا ما يقنع الرجال بزوجاتهم، خاصة رجال الشرطة.

١٢

بالرغم من صغر حجمها، إلا أن «صابرين» انطلقت تجرى بثقة وسط أقدام العمالقة الكبار بينما شعرها الذى تربطه على شكل ذيل الحصان يتطاير خلفها فى رشاقة. الزحام شديد فى السوق، الباعة الجائلون يصرخون بكل قوتهم، أضواء المحلات تتلألأ، وهى تشعر بطريقها ممهدًا بالحرير وسط كل هذا الضجيج. قلب صغير برىء مفعم بالأمل والفرحة.

منذ قليل، كانت تجلس مع والدتها وجارتها «نهال». طلبت من والدتها أن يكون العشاء عبارة عن سندوتش حلاوة طحينية. أعدت الأم السندوتش من الخبز الأسمر لكنها أصرت على الخبز الأبيض. أخذت النقود وجرت إلى السوق لشراء الخبز الأبيض الفاخر وهى تحلم بالعشاء اللذيذ، سندوتش حلاوة طحينية وهى تشاهد أفلام الكارتون فى التليفزيون.

و هى تجري بين العمالقة شعرت بشيء ما يخطف بصرها، توقفت ثم عادت خطوتين للخلف. تعثرت فى أقدام أحد الكبار لكنها لم تأبه له. ابتسمت. يا له من ثوب رائع مطرز بقطع الكرستال التى تتلألأ تحت الضوء الباهر.

رأت نفسها فى ثوب الزفاف تتهادى بجوار زوجها الوسيم الأنيق. الناس بجوارها مبهورين الأنفاس بجمالها وأناقتها، يحسدونها

على زوجها الأنيق القوى. لكن من يكون زوجها؟ ربما يكون النقيب «عماد» بسمرته وقوته وشاربه الكثيف وشعره القصير. لا شك أن هذا هو الرجل الذى تأمن له وتسّلم له نفسها. . . وإن لم يكن النقيب «عماد» فمن يكون؟. . . ربما «نادر» الذى أنقذها هى ووالدتها أثناء الثورة، هو أيضًا أسمر، لكنه بلا شارب وشعره أجعد مصبوغ باللون الأصفر. سمعت النقيب «عماد» يقول إن «نادر» بلطجى، و«نادر» هو الذى أنقذهم. إنها تحب الرجل القوى الذى يحميها لتنعم بالحياة فى ظله وتفعل ما يحلو لها.

استيقظت من أحلامها على صوت نفير سيارة ملح مزعج. أحد أصحاب المحلات يتشاجر مع أحد الباعة الجائلين. البائع المتجول يغلق باب المحل ببضاعته وراح يصرخ وهو يتلفت للناس: إنها لقمة عيشى، أليس هذا أفضل من السرقة؟ صاحب المحل يصرخ: وهى لقمة عيشى أيضًا، أغلقت أبواب الرزق فى وجهى. . . جرت الصغيرة نحو المخبز.

و هى فى داخل المخبز، اشتد صراخ الرجال، يسبون بأفظع السباب، بعضهم يلعن الدين ويلعن الله نفسه. اختلط كل هذا بصياح النساء والأطفال ونفير السيارت. ثم خرجت السيوف وأعواد الخشب وقضبان الحديد. تحطمت الواجهة الزجاجية للمخبز. شعرت الصغيرة بالطنين يدب فى أذنيها. صرخ الزبائن داخل المخبز:

ـ كله الآن بالبلطجة.

ـ لا يوجد وسيلة للتفاهم إلا الذراع.

ـ الصوت الأعلى هو الرابح مهما كان على خطأ والصوت المنخفض هو الخطأ مهما كان على صواب.

الناس يتزاحمون داخل المخبز ولا أحد يشعر بالصغيرة التى يضيق

الخناق عليها حتى أصبحت شبه عاجزة عن التنفس . ثم بدأت الفرقعات . صرخ الناس فى تخبط . البعض يهتف: ذخيرة حية . والآخر: مجرد خرطوش . رجل أشيب الشعر يصرخ فى صاحب المخبز:

ـ اتصل بالشرطة .

قال صاحب المخبز فى غضب:

ـ اتصلت بالنجدة ولا أحد يرد .

قال شاب صغير وهو يحمل التليفون المحمول:

ـ وأنا أحاول الاتصال برقم الجيش ولا أحد يرد .

ـ إنهم ينتقمون منا .

ـ كله الآن بالبلطجة .

اندهشت الصغيرة من هذا الذعر من البلطجة . النقيب «عماد» وجارتها «نهال» يصفان «نادر» بالبلطجى و«نادر» هو الذى أنقذها . فلماذا كل هذا الخوف؟

راحت تدس نفسها بين أقدام العمالقة تحاول البحث عن أى مخرج . لم ينتبه لها أحد أو يسألها إلى أين؟ لا أحد يفكر فى مصيرها . فى النهاية وصلت إلى باب المخبز . ودوت الفرقعات المتتالية . طمأنت نفسها أن البلطجى هو الذى أنقذها ، ربما تجد «نادر» فى الطريق أو أى أحد يشبهه . اندفعت تجرى فى الزحام . شعرت بشىء ما يصدم رأسها بمنتهى القوة والقسوة ، وسقطت مغشيًا عليها .

١٣

لا يزال الفنار معاندًا مكابرًا . . يرفض الخضوع والاستسلام رغم الاهمال واللامبالاة . . يرفض الانهيار أمام جبروت البحر . . رغم وجود فنار جديد مُجهز بأحدث الأجهزة إلا أنه مازال يفتخر بتاريخه القديم فى هداية السفن القديمة إلى الإسكندرية العتيقة . .

يتمدد أمامه ممر خشبى صغير يصله بالأرض . الممر محطم بطريقة غريبة ، يبدو أن تحطيمه بفعل فاعل من أجل منع الصيادين من الوصول إليه . لكن الصيادين يضعون أدوات الصيد فوق عوامة مطاطية ويسبحون إلى الفنار بحثًا عن الصيد الثمين ، بحثًا عن لقمة العيش . هؤلاء البسطاء لا يجدون طريقًا لكسب لقمة العيش سوى الصيد ، لا يعلمون أى مهنة غيرها .

من خلف الفنار ، خرجت سفينة عملاقة من الميناء . قد تكون أضخم سفينة يراها فى حياته . السفينة تشق البحر فى قوة وجسارة ، ثقة بلا حدود . التفت وراحت تنساب فوق سطح المياه برشاقة بلا حدود . تتجه إلى عرض البحر ، تتجه إلى العالم البعيد ، العالم المتحضر ، وربما إلى عالم آخر متخلف ، حيث الذهب والماس والبترول ، هناك يعيش أصحاب الأرض فى جهل وتخلف وينعم أهل الشمال بالحياة الهادئة المستقرة . ينعمون بالقانون والكرامة الإنسانية .

جلس النقيب «عماد» يرقب السفينة مذهولا من ضخامتها وقوتها. فى هذه اللحظة تمنى أن يكون بحارًا، بطلا يواجه البحر بكل مخاطره، يتعلم من كل شعوب العالم. ثم التف الحلم إلى اتجاه آخر. أصبح يحلم بامتلاك يخت صغير. فى هذا اليخت، يخطف «نهال» و«صابرين» ويذهب بهما إلى جزيرة معزولة فى عرض البحر. فى هذه الجزيرة سيصبح هو الرجل الوحيد فى حياة «نهال»، هو مثال الرجولة والبطولة، لأنها لن تستطيع الحياة بدون حمايته وقوته. سيصبح هو الأب الوحيد لـ «صابرين»، يربيها كيفما يشاء وهو يلهو معها، يعتصرها فى أحضانه كيفما يحلو له. بالتأكيد ستشعر بالأمان وهى فى أحضانه لأنه سيكون أبًا حنونًا مترفقًا بها وهو يعلمها سبل الحياة.

قبل أن تختفى السفينة العملاقة فى الأفق رأى مركب صيد صغير يقترب، لمح فوقها شاب، أسمر بالتأكيد من شمس البحر، وخشنًا بالتأكيد من ملوحة البحر. راحت مركب الصيد تقترب من الشاطئ بسرعة وقوة إلى أن قفزت فوق الرمال. هبط الصياد وراح ينتقى أسماك السردين من الشباك ويضعها فى الطاولة الخشبية. لا شك أن هذا الصياد يعيش هنا، فى أحد البيوت الخشبية الصغيرة التى خلف ظهره. بيت خشبى صغير متواضع وقارب صيد صغير. لكنه بالنسبة لزوجته مثالا للرجولة والقوة، إنها لا تستطيع الحياة بدونه.

تحوّل الحلم من بحار إلى صاحب يخت إلى صياد. مجرد صياد بسيط يعيش هنا فى بيت خشبى صغير وبجواره «نهال». يخرج فى الصباح الباكر لمواجهة البحر والموج والتيار ويعود آخر النهار محملا بالرزق. قد تضطره الظروف إلى الإبحار لمدة يومين أو ثلاثة بحثًا عن الرزق فى عرض البحر، ستدعو له «نهال» بالتوفيق قبل الخروج، سيلمح فى عينيها الخوف والقلق عليه من مواجهة البحر، لكنه سيأخذها

فى أحضانه ويلقنها قبلة صغيرة تعيد إليها بعض الطمأنينة. ستقبع فى البيت الخشبى الصغير تدعو له وتحلم بعودته. عندما يعود يجد اللهفة فى عينيها، ستأخذه فى أحضانها وتغرقه بحبها وشوقها. بعد بيع السمك سيأخذ ابنته «صابرين» ليشترى لها بعض الحلوى والملابس الجديدة.

بالرغم من أنه كان يحلم كثيرًا بأن يكون ضابط شرطة لكنه اليوم يريد أن يكون أى شىء غير ضابط شرطة. يشعر أن سوء الفهم الذى بينه وبين «نهال» فى أنه ضابط شرطة. لو كان أى شىء آخر ربما سيصبح التفاهم بينهما أسهل وأفضل.

فى الأسبوع الماضى أمضى فى عمله فى مديرية الأمن أكثر من ثمانية وأربعين ساعة. كان يحلم بأن يعود ليجد فى عينيها اللهفة لكنه بدلا من ذلك وجدها ثائرة غاضبة، قالت فى حنق:

ـ حاولنا الاتصال بك كثيرًا دون جدوى.

قال متعبًا مرهقًا:

ـ كلنا أغلقنا تليفوناتنا المحمولة بسبب ضغط العمل.

ـ لقد اتصلنا بالنجدة والشرطة والجيش، ولا مجيب أبدًا.

كان يعلم من خلال عمله بالهجوم الذى حدث من البلطجية فى السوق، والناس ثائرة، يشعرون أن الشرطة أهملت فى أداء واجبها، فقال فى حدة:

ـ ماذا نفعل؟ كان هناك هجوم أكبر من ذلك على مديريات الأمن، الثوار أحاطوا مديرية الأمن وراحوا يلقون عليها بالحجارة، هل نترك المديرية؟

سألت «نهال» فى غضب:

ـ والناس البسطاء، ماذا يفعلون؟

قال وهو يشعر بالفخر لأهمية عمله:

ـ البلطجة انتشرت فى كل مكان نتيجة لسقوط بعض أقسام الشرطة، هل تتخيلين ما يمكن حدوثه لو سقطت مديريات الأمن أيضًا؟

شعر بنيران الغضب تتطاير من عينيها وتلفح وجهه وهى تقول:

ـ هل علمت بما حدث لـ «صابرين»؟

اسم «صابرين» زلزله، التمعت عيناه وهو يسأل فى تركيز شديد عما حدث، فقالت:

ـ أصيبت بخرز الخرطوش فى رأسها.

شعر برجفة شديدة فى قلبه وهو يسأل:

ـ هل حدث لها مكروه؟

ابتسمت سعيدة بهذه المشاعر الإنسانية النبيلة ثم قالت:

ـ الطبيب يقول أن الإصابة بسيطة وستشفى خلال أسبوع أو اثنين.

ـ وأين هى الآن؟

أجابت فى إهمال:

ـ فى شقتها مع والدتها.

راح يقفز فوق الدرج صاعدًا إلى «صابرين» و«نهال» تجرى خلفه.

كانت «صابرين» تجلس فى فراشها، حول رأسها عصابة بيضاء ملطخة ببقعة حمراء، قد تكون بقعة دم أو بقعة الدواء المطهر. اختفت خصلة شعرها الأسود الناعم التى تتساقط على جبهتها، إنه يعشق هذه

الخصلة الرقيقة. اختفى ذيل الحصان الذى يدل على براءتها وطهارتها. أصبح وجهها شاحبًا أصفر بعد أن كان متوردًا بلون الوردة البلدى الحمراء. بريق عينيها الطفولى الرائع اختفى أيضًا. شعر كأن هناك وحش كاسر يحاول اختطافها من عالمها البرىء الجميل. الوحش لا يرحم رقتها أو صغر سنها. الوحش لا يرحم أحلامها الوردية الجميلة والأمل فى الغد.

ما أن اقترب من فراشها حتى انكمشت الصغيرة داخل نفسها فى ذعر. هذا الموقف جعله يشعر بغصة فى قلبه ومرارة فى حلقه. لم يكن يتوقع أبدًا أن تخشى منه رغم حبه الشديد لها. حاول الاقتراب أكثر فصرخت وجرت تختفى خلف والدتها. طفرت الدموع من عينيه رغمًا عنه، جذبته «نهال» وهى تقوده إلى شقته بالطابق الأسفل. وما أن دخل شقته حتى ألقى بكل ثقله على المقعد وراح يبكى بشدة مثل طفل صغير و«نهال» تربت على ظهره فى حنان بالغ.

فى اليوم التالى، اشترى قطعة الشيكولاتة وصعد إليها، لكن الصغيرة صرخت بشدة وهى تنكمش داخل نفسها فى ركن الفراش. تنظر إليه فى هلع كأنما ترى عفريتًا جبارًا يقف أمامها ويحاول افتراسها.

خرج من حجرتها بسرعة وهو يصر على إحضار الطبيب فورًا. وقال الطبيب إنه ارتجاج بسيط فى المخ لكنه سيزول سريعًا خلال بضعة أيام.

لم يكن يشعر أنه يحب «صابرين» كل هذا الحب من قبل، يشعر بأنها ابنته وهو المسؤول عنها ولا يعرف ماذا يفعل؟

كالعادة، عندما يقع فى أى مأزق، حاول الاتصال بالعميد «البهنساوى». لكن كل التليفونات ترن دون جدوى. أين ذهب هذا الرجل؟ أين ذهب هذا الوغد؟ ألا يعلم أنه فى حاجة إليه؟ ضباط الشرطة يجب أن يواجهون، لا يهربون بهذا الشكل المخزى. هذا ما تعلمه

منه . حتى ابنه «هانى» اختفى . زوجته ماتت! أو قُتلت . هل من الممكن أن يكون العميد «البهنساوى» قاتلاً؟ لماذا؟ يبدو أن هذا الرجل مجرد سراب ، مجرد حلم فى رأسه ولا وجود له فى الواقع .

شعرت «نهال» بحيرته واضطرابه ، طلبت منه الخروج ليجلس مع أصدقائه فى المقهى ، مجالسة الأصدقاء المخلصين قد تخفف من قلقه . لكن مخاوفه نمت فى المقهى وسط الأصدقاء والجيران . معظمهم يتهمه بأن الشرطة تخلت عن واجبها من أجل معاقبة الناس ، إنهم يريدون تكفير الناس بالثورة والسعى لعودة «مبارك» . التكفير بالثورة؟! مصطلح جديد لم يكن يعلمه . العميد «البهنساوى» لم يذكر له هذا المصطلح أبدًا . الناس تؤكد أن «مبارك» مازال يحكم ، أو أعوانه على الأقل . ربما ، كلها تخمينات وإستنتاجات ولا أحد يعلم الحقيقة . الأصدقاء يتوجهون إليه بالأسئلة وكأنه وزير الداخلية وهو لايعلم شيئًا . بعضهم يؤكد أن الحل فى الحكم المدنى . لا يعرف كيف يكون الحكم مدنيًا؟ تعلم على يد العميد «البهنساوى» أن المدنى بطبيعته ضعيف خاضع ، المدنى يحتاج قوة العسكرى . ألم يقل الفلاسفة أن العدل يحتاج القوة؟ «نهال» تقول إن القوة الحقيقية فى العقل . لكن السلاح قادر على قتل العقل فى لحظة خاطفة . ما القوة؟ يبدو أن هذه الكلمة ليست بسيطة أبدًا كما كان يعرف .

و هو جالس وسط الأصدقاء والجيران رن تليفونه . فتح التليفون وهو يقول فى هدوء:

ـ أهلاً يا «فؤاد» . . .

ثم انتفض فى مقعده وهو يسأل:

ـ من؟ . . . كيف حدث ذلك؟ . . .

١٤

وقفت «نهال» فى الشرفة تترقب عودة النقيب «عماد». لقد تبدلت أحواله كثيرًا فى الأسبوع الماضى. أحيانًا يكون هادئًا، وأحيانًا غاضبًا ثائرًا. لكن فى جميع الأحوال، الحزن يسكن عينيه. حزنه ليس طبيعيًا بل الحزن الحائر التائه.

يا له من مسكين. الكثير من الناس يتهمه بالقسوة وغلظة القلب. وهى أيضًا تراه كذلك. فى بعض الأحيان تشعر أن ما ينبض فى صدره ليس قلبًا مثل بقية البشر بل قطعة صخر جامدة خالية من أى حياة. الغريب فى الأمر أنه يفتخر بذلك، سعيد بهذه الصورة الهمجية، سعيد بنظرات الخوف والرهبة فى عيون من حوله. يعتبر أن هذا نوع من الاحترام. لكن الفارق كبير جدًا بين الخوف والاحترام.

بالرغم من هذا المظهر القاسى إلا أنه بشوش ودود مع «صابرين» فقط. عندما يبتسم فى وجه الصغيرة تشعر أن الابتسامة نابعة من قلب صاف أبيض. بالرغم من تعجله ونفاد صبره إلا أنه صبور معها إلى أقسى حد. يحاول جاهدًا أن يخرجها من حجرتها، يغريها بشراء الشيكولاته والحلوى وكل أنواع الألعاب. لكن الصغيرة ترفض الخروج من حجرتها تمامًا، مجرد أن يقترح عليها أحد الخروج تصرخ وهى تنظر إلى باب الغرفة فى فزع. الكوابيس تطاردها طوال الليل، تصرخ

وهى تمد يدها الصغيرة المتشنجة مدافعة عن نفسها: ابعدوا عنى! . . . ابعدوا عنى! . . . اتركونى. فى بعض الليالى، يشق صراخها صمت الليل ويصل إلى الشقق المجاورة، يتسابق النقيب «عماد» مع «نهال» فى الصعود إليها. يسألها النقيب «عماد» فى هدوء شديد بالرغم من أن كل عضلة فى جسده تختلج فى اضطراب: ماذا رأيتِ فى الحلم؟ فترد الصغيرة وهى تنكمش فى زاوية الفراش وفى عينيها نَظرات زائغة كأنها على وشك الجنون: عفاريت ضخمة. . . ضخمة جدًا. . . يلتفون حولى ويريدون قتلى. . . يحاول النقيب «عماد» الاقتراب منها ليهدهدها ويعيد إليها الطمأنينة لكن الصغيرة تنكمش فى زاويتها أكثر، ترفض أن يلمسها أى أحد وتكمل: إنهم يضحكون بطريقة غريبة مخيفة، إنهم سعداء بخوفى.

فى هذه الليلة رأت عينيه تلمع ببريق الدموع. أصبحت لا تعرف من هو هذا الرجل، بالرغم من صلة الجوار التى تربط بينهما منذ نعومة أظافرهما إلا أنها تجهله. هل هو طيب القلب، أم ضابط قاس فظ غليظ؟ وإن كان طيبًا فلماذا يجاهد لكبت مشاعره وإنسانيته؟

فى هذه الليلة، وهما يهبطان من شقة «صابرين» سألته عن سر اهتمامه بها، فقال:

ـ «صابرين» تقبع فى حجرتها مثل دودة القز التى تقبع داخل شرنقتها. حتى لو كان مظهر الشرنقة قبيحًا لكنها تحوى الخير بداخلها.

ابتسمت وهى تقول:

ـ يبدو أنك أصبحت شاعرًا.

استعاد صرامة وجهه بسرعة وصدمها قائلا:

ـ ضابط الشرطة لا يجب أن يكون شاعرًا.

سألت فى ذهول:

ـ من قال ذلك؟

أجاب فى حدة:

ـ العميد «وليد البهنساوى». ضابط الشرطة مخلوق من الحديد الصلب.

ثم أصبحت تقلباته أكثر شدة. أحيانًا شديد الحزن والصمت وأحيانًا سريع الغضب. أحيانًا تلمح فى عينيه القلق، أحيانًا الخوف، وأحيانًا الحزن. أحيانًا القسوة والغلظة وأحيانًا الحنو والرحمة. حدث هذا التحول منذ بداية الأسبوع الماضى، منذ حادثة صديقه.

قُتل صديقه وزميله النقيب «كمال» أثناء تأدية عمله فى الكيلو 21. كان يقوم بالبحث عن المشتبه بهم، هذه المنطقة تعتبر خطيرة جدًا من وجهة نظر الأمن. المجرم الذى يستطيع اجتياز هذه المنطقة سيتمكن من الهرب إلى الصحراء الغربية ولن يعثر عليه الأمن أبدًا هناك. من الممكن جدًا أن يتمكن من الهرب إلى ليبيا ويهرب من العقاب والقانون.

استوقف النقيب «كمال» إحدى السيارات، بعد تفحص الأوراق اكتشف انتهاء رخصة السيارة. بالرغم من بساطة عقوبة هذه المخالفة إلا أن صاحب السيارة الذى كان يترك لحيته الكثة دون تهذيب ويرتدى جلبابًا قصيرًا وساعة ذهبية ثمينة، راح يصرخ فى غضب متهمًا الشرطة بالظلم والاستبداد، وراح يؤكد انتهاء هذا العصر بعد الثورة. ولأن الزحام كان شديدًا، التفت الجماهير الغفيرة حول النقيب «كمال» وانهالوا عليه ضربًا حتى سقط قتيلا مضرجًا بدمائه.

عندما قص النقيب «عماد» على «نهال» هذه الواقعة، قالت فى تشكك:

ـ أشعر كأن هناك ثأر بين هذا الرجل ونقيب الشرطة.

جحظت عيناه فى دهشة. دهشته أكدت لها صدق حدسها. فابتسمت مداعبة وهى تقول:

ـ احكى... احكى... ما علاقة هذا النقيب بصاحب السيارة؟

استسلم النقيب «عماد» على مقعده فى ارتياح كأنما يلقى حملا ثقيلا عن ظهره. ثم راح يقص لها علاقة صاحب السيارة بالنقيب «كمال».

كان صاحب السيارة يعمل سائقًا على إحدى سيارات النقل الثقيل منذ عامين. بسيارته الضخمة صدم سيارة أخو النقيب «كمال». مجرد حادث مرور عادى، عقوبتها بسيطة وبعد عدة أعوام فى المحكمة. هذا حسب القانون. استغل النقيب «كمال» علاقته بزملائه، كما قام الوالد الذى كان لواء شرطة سابق بعدة اتصالات. فى النهاية تم القبض على سائق النقل فى إحدى اللجان. الضابط الذى قام بالضبط أراد مجاملة النقيب «كمال» ووالده اللواء السابق فأتى بالسائق مكبلا بالحديد إلى مكتب النقيب «كمال» الذى كان قد أعد قطعة كبيرة من المخدرات ولفق له قضية الإتجار فى المخدرات. وحكمت المحكمة بالسجن ست سنوات.

حاولت «نهال» إقناع النقيب «عماد» أن هذه هى النهاية الطبيعية للظلم. فقال النقيب «عماد» ثائرًا:

ـ لكن السائق مخطئ ويجب معاقبته.

قالت فى هدوء:

ـ عقابه يكون إصلاح السيارة التى صدمها وبطريقة قانونية.

ـ المحاكمة تصل إلى عدة سنوات إلى أن تضيع الحقيقة.

قالت فى حدة:

ـ ألا تعتبر نفسك حاميًا للقانون. هذا هو القانون.

قال فى حدة أشد:

ـ لكن معظم قائدى النقل الثقيل يتعاطون المخدرات.

قالت فى تحد:

ـ يقولون معظمهم وليس كلهم. وإن كان بالفعل يتعاطى المخدرات فيجب معاقبته بالقانون وليس بالتلفيق.

هب واقفًا وقال ثائرًا:

ـ أنت تحلمين بالمدينة الفاضلة. إنها مجرد أحلام للفلاسفة البلهاء.

قال ذلك ثم تركها وانصرف غاضبًا. قاطعته لمدة يومين. ثم سامحته بعد أن رأت الدموع فى عينيه من أجل «صابرين». بالرغم من حزنه الشديد على مقتل زميله وصديقه، بالرغم من قلقه وحيرته، بالرغم من بحثه عن العميد «وليد البهنساوى» إلا أنه لم يُهمل «صابرين» لحظة واحدة، كأنها ابنته، كأنه المسؤول عن إصابتها وصدمتها. حبه الجارف لـ «صابرين» جعلها تتأكد من وجود إنسان طيب بداخله لكنه يجاهد ويكافح ببسالة من أجل إخفاء هذا الإنسان. أصبحت لا تستطيع النوم قبل عودته أو الاتصال به بالتليفون للاطمئنان عليه إذا كان سيبات فى عمله. أصبحت تتعمد أن تشعره باهتمامها وعطفها عليه لتعاونه على اجتياز محنته. كيف تترك هذا الإنسان الطيب ضحية للقلق والحزن والتيه؟

فى العاشرة مساءً، رأته يقترب من البيت بخطوات هادئة جنائزية.

جرت إلى السلم لتكون فى استقباله. سألته مازحة إن كان العمل هو سبب تأخره أم أنه ذهب إلى المقهى. فأخبرها أنه ذهب بعد العمل لزيارة أرملة النقيب «كمال» ثم سألها:

ـ ما ذنب زوجته وابنته التى لم تتم العامين فى هذه الأحداث؟

ربتت على يديه برفق وإن شعرت بالضيق لاهتمامه بأرملة صديقه.

١٥

عبر الحديقة الواسعة الأنيقة، قاده البواب إلى أحد الأركان حيث الكوخ الخشبى. إذا كان مبنى الفيلا فى غاية الفخامة والأناقة، وإذا كانت الرفاهية الشديدة واضحة من الاعتناء بالحديقة وحمام السباحة والنباتات النادرة، إلا أن الكوخ بدائى، مصنوع من جزوع الأشجار دون تهذيب. تساءل النقيب «عماد» فى نفسه: هل الحنين إلى الطبيعة والحياة البدائية هو نوع من الترف؟ الفقراء لا يفكرون فى مثل هذه الأشياء أبدًا. لا ينشغلون إلا بثمن رغيف الخبز وطبق الفول وأسعار المواصلات.

عندما دخل إلى الكوخ، كان الانطباع الأول هو الانبهار. بعض المقاعد مقلوبة، الوسائد على الأرضية أو ملقاة فوق المنضدة فى إهمال، زجاجات الخمر الفارغة وأنابيب الألوان متناثرة فى كل مكان. مناشف صغيرة كثيرة متسخة بالبقع الملونة. لوحات كثيرة متناثرة، بعضها مقلوب، بعضها مكفى على الجدران. صورة العميد «البهنساوى» موجودة فى عدة لوحات بأوضاع مختلفة. الفوضى فى كل المكان. وهذا على عكس الانضباط العسكرى والصرامة والدقة فى أدق التفاصيل.

الغريب فى الأمر أنه شعر بالارتياح لهذه الفوضى. كأن الفوضى هى الحياة والانضباط العسكرى هو الموت. تساءل فى نفسه: هل يجب على الإنسان أن يستسلم للطبيعة ويعيش فوضويًا همجيًا؟ ربما. لكن الحياة بهذا الشكل لن تستقيم. لا بد من تنظيم العلاقات بين الناس بالقانون. لا بد من وضع كل شىء فى مكانه حتى نعثر عليه بسرعة وقت الحاجة إليه. لكن... يجب الاستسلام لفوضى الطبيعة من حين لآخر من أجل استعادة التوازن النفسى.

اندمج فى هذه الفوضى حتى أنه راح يدندن رغم أنفه أغنية «شادية» التى أصبحت تتردد الآن فى كل مكان: يا بلادى... يا بلادى... يا أحلى البلاد يا بلادى... فداكى أنا والولاد يا بلادى...

استيقظ من هذا العالم الوردى على صوت خطوات تقترب. استعاد جهامته بسرعة والتفت ليجد أمامه «شاهيناز».

دُهش عندما رآها. شقراء، مستديرة الوجه، دقيقة الملامح، عينان فاتحتان مثل عينىّ القطة. متوسطة الطول والقوام. يبدو أنها أميرة إغريقية ساحرة. من المؤكد أنها من هذه السلالة، لقد أتى الإغريق إلى مصر بأمر من الإسكندر الأكبر الذى شيد الإسكندرية. من هنا توغلوا فى كل أرجاء البلاد. إنها حفيدتهم. بل ربما تتفوق عليهم فى الجمال، إنها نتيجة امتزاج الجمال الإغريقى الساحر وخفة ظل المصريين.

تقدمت «شاهيناز» وجلست بهدوء وهو يرنو إلى صدرها الطافح بالشباب النافر من خلال فتحة القميص، ثم قالت:

ـ البواب يقول إنك من طرف العميد «وليد».

ـ نعم.

ـ ما أخباره؟

قال وهو يتفحص ساقيها فى اشتهاء:

ـ جئت لأسألك عن أخباره.

اعتدلت فى جلستها ووضعت ساقًا فوق الأخرى وهى تقول:

ـ لا أعرف عنه شيء منذ عام تقريبًا.

قرر الهجوم ليصل إلى هدفه من أقصر الطرق فقال:

ـ زملاؤك فى الجامعة يؤكدون وجود علاقة حميمة بينكما.

قالت فى استهتار:

ـ كانت.

قال فى تحد:

ـ العميد «البهنساوى» مفقود وربما يكون متهمًا بقتل زوجته.

انتفضت فى مقعدها وقالت فى انزعاج:

ـ قتل زوجته؟! أنا متهمة إذن؟

ابتسم ليعيد إليها الهدوء:

ـ لا يوجد بلاغ رسمى. أنا أبحث عنه بصفة شخصية بحتة.

ـ لماذا؟

ـ لأننى أعتبره بمثابة الأب الروحى.

قالت ساخرة:

ـ الأب الروحى؟! هذا هو سيادة العميد.

ـ ماذا تقصدين؟

و راحت تقص عليه تفاصيل علاقتها مع العميد.

أول لقاء جمعهما، كان فى الاحتفال بعيد ميلاد زميلها «هانى»، ابن العميد «البهنساوى». فى هذا الحفل، كان كل المدعووين من الشباب صغار السن، يقفزون ويرقصون فى مرح ونشاط. بهرها العميد «البهنساوى» بهدوئه وصرامته، الانضباط العسكرى واضح جدًا فى كل تصرفاته وأفعاله. منذ هذا اليوم بدأت تحاول الاقتراب منه. عندما اقتربت اكتشفت قوة شخصيته ورجاحة عقله. رجل محنك خبير بكل شؤن الحياة، على عكس زملائها السفهاء.

سرعان ما بدأت فى نصب شباكها حوله. حاولت إغرائه بملابسها الساخنة، حاولت استغلال سحرها ودلالها. عندما شعر العميد بذلك صدمها قائلا:

ـ أنا لا أصلح لشىء إلا أن أكون أبًا لك.

بالرغم من صدمتها من هذه الكلمة، إلا أنها شعرت بالأمان والسكينة. أصبحت تطارده بالمكالمات التليفونية وزيارته فى المكتب. أصبحت تطلب منه الخروج معها لشراء بعض احتياجاتها. كانت تسير بجواره فخورة بوجود هذا الرجل القوى معها. عندما يدخلان إلى أى مكان، سرعان ما يقدم نفسه بثقة: عميد شرطة «وليد البهنساوى» وعلى الفور تشعر بتبدل معاملة الناس لها. يتعاملون معها بأدب وحذر شديد كأنها أميرة فى حراسة قائد الجند. ثم بدأت تدعوه إلى النادى. هناك شكت له من والديها المنفصلين. الوالد يعيش مع زوجة أخرى فى فرنسا ووالدتها تعيش مع زوج آخر فى دبى. بقيت وحدها برفقة خادمتها فى شقة المعادى. اشترى والدها هذه الفيللا فى «العين السخنة» لقضاء أيام الإجازة القصيرة. سمح لها بتشييد هذا الكوخ ليكون مرسمًا لها. والدتها أيضًا تعود إلى مصر لقضاء الإجازة القصيرة. لكن كل

منهما يتعمد أن تكون إجازته فى أيام تختلف عن إجازة الآخر. حتى فى أيام الإجازات، لا تلتقى بأى منهما إلا مرة واحدة أو مرتين. كل علاقتها بوالديها تتم عن طريق البنوك، يرسلون إليها الأموال فقط دون أى كلمة.

اقترح عليها العميد التواصل مع والديها عبر الإنترنت. تنهدت قائلة:

ـ حاولت ذلك لكنى شعرت من كلمات كل منهما أنه مشغول بحاله. فى بعض الأحيان لا يأتى الرد وأحيانًا يكون الرد عبارة عن كلمات مختصرة بعيدة عن الموضوع الذى كنت أتحدث به.

ضحك العميد مؤكدًا:

ـ إذن، كنت على حق عندما قلت إنك تبحثين عن أب.

قالت بهدوء:

ـ ربما.

ثم ضحكت فى دلال:

ـ لكن هذا يدل على ذكائك الشديد. لقد فهمتنى بسرعة.

ضحك العميد وهو يقول فى قلق:

ـ ربنا يستر.

ثم دعته إلى مرسمها فى «العين السخنة» لترسم له بعض اللوحات. هنا، فى هذه الحديقة، وعلى الشاطئ، اكتشفت روعة العميد. إنه رجل شديد الحساسية، محب للفنون، يتذوق الألوان، ينسجم مع الموسيقى، يعشق الحياة. لكن الانضباط العسكرى يمنعه من ذلك. لذلك قررت أنا أن أقوم بمعالجته ليستمتع بسحر الحياة.

بعد محاولات كثيرة فاشلة، استسلم بين يداى، وأنا تذوقت الحب لأول مرة فى أحضانه. أصبح يتعلل لزوجته بالمأموريات ليقضى معى هنا يومين أو ثلاثة. ننسى أنفسنا مع سحر الموسيقى والرقص والخمر. نندمج مع الطبيعة، وأحيانًا نذوب فى ديوان شعر.

فى ذات يوم، قال إنه سيأتى الليلة ومعه عشاء فاخر. كان العشاء عبارة عن الجمبرى الكبير الفاخر. إنه أغلى أنواع الجمبرى على الإطلاق. دفعنى الفضول الطبيعى لأن أسأله عن المكان الذى اشتراه منه وعن السعر. لكنه ضحك فى سخرية:

ـ أنا لا أدفع الأموال. أنا آكل فقط.

أدركت طبعًا إنه استغل نفوذه للحصول على هذه الوجبة الفاخرة. فى هذا اليوم شعرت بالنفور منه. إنه لا يعرف ثمن الأكل الذى يأكله. من المؤكد أنه يرى التجار ورجال الأعمال كلهم لصوص. كيف يتذوق الفنون بهذا الحس المرهف ثم يستغل نفوذه بهذه القسوة؟ ما ذنب الإنسان الذى يستغله؟ وربما يكون هذا الإنسان مجرمًا وقع تحت سلطانه وهو يحاول إيجاد مخرج له مقابل هذه الوجبة. فى البداية رأيته نموذج للصرامة العسكرية واحترام القانون ولهذا أحببته. والآن أرى قمة الاستهتار بالقانون والسخرية به.

فى هذه الليلة، لم أمنحه الحب. تعللت بالمرض. لكن بعد يومين إلتمست له الأعذار. من حقه الإستمتاع بمباهج الحياة، خاصة بعد رحلة الكفاح الطويلة، لكن الراتب مهما كان لا يكفى لهذا البذخ. يجب عليه أن يعيش دون بزخ. لكنه ربما، صراع الطبقات الذى يتحدثون عنه. إنه يرانى أمامه أنعم بالأموال الطائلة دون أى مجهود وهو لا يملك سوى الراتب. ولذلك عادت علاقتنا إلى سيرتها الأولى.

بعد عام ونصف تقريبًا حدثت الطامة الكبرى. قام بتوصيل تليفونه

المحمول على شاشة الكمبيوتر ليعرض عليّ الفيلم الذى صوره. فى هذا الفيلم كان يقوم بتعذيب أحد الجنود، يأمر الجندى بالزحف ثم يلقى عليه المياه. بعد أن أنهى سيجارته يغرسها وهى مشتعلة فى جسده. الجندى يصرخ ويتألم وهو يسبه ويلعنه. مدة الفيلم نصف ساعة تقريبًا.

شاهدت الفيلم فى فزع. ثم سألته عن سبب كل هذا التعذيب. توقعت أن يقول لى إنه جندى خائن للوطن. لكنى فوجئت به يقول فى فخر:

ـ هذا الجندى كان يعمل فى حرس الجامعة عندكم. كان يتحدث عنى وعنك بطريقة غير لائقة. لذلك قمت بنقله من حرس الجامعة ليكون تحت قيادتى.

ـ لماذا كل هذا العنف؟

أجاب فى إعتزاز:

ـ يجب أن يتأدب ويتعلم ألا يتحدث عن أسياده بهذه الطريقة.

فى هذا اليوم شعرت بالنفور والاشمئزاز. ثرت فى وجهه. حاول تهدئتى مدعيًا إنه اضطر لذلك دفاعًا عن سمعتى وسمعته.

لكن هذه هى الضربة القاضية. اكتشفت أنه إنسان مخادع غير سوى. طردته بسرعة من الفيللا ومن حياتى كلها. ولم أره حتى اليوم.

١٦

ظلت الكوابيس تطارده طوال الليل. الشاب الأسمر الذى أنقذه فى الميدان بطيبته وسماحته، «نهال» بهدوئها ورجاحة عقلها ومشاعرها النبيلة، «شاهيناز» بسحرها ودلالها، «صابرين» بصفائها وخفة ظلها وأحلامها البريئة.

فى الصباح اتجه إلى عمله منهكًا مضطربًا. بعد انتهاء اليوم لم يجد فى نفسه أى رغبة فى العودة إلى المنزل. بدّل ثيابه العسكرية وإتجه إلى الفنار.

لا يعرف ما الذى يربطه بهذا الفنار القديم؟ هل لأن الفنار هو الهداية والأمان للسفن؟ أم لأنه يذكره بالإسكندرية القديمة الطيبة المنفتحة على كل ثقافات العالم؟ أم لأن الفنار يشاركه الهموم؟ الفنار يعانى من غدر البحر والموجات المتلاحقة إلى مالانهاية. وهو يعانى من غدر الأيام وتقلباتها التى لا نهاية لها. كان يحلم بعد الدراسة أن يكون هذا الضابط القوى الحكيم. يلتف الناس حوله، يغرقونه فى الحب والاحترام، يبحثون عن الحماية بجواره. بعد أن تعلم الانضباط العسكرى على يد العميد «البهنساوى» هبت الثورة وأصبح ضباط الشرطة مطاردين فى كل مكان، يُقتلون جهارًا نهارًا، والقادة الكبار والوزير لا يحركون ساكنًا من أجل تهدئة الناس.

الآن، يتمنى أن يكون إنسانًا بسيطًا مثل هؤلاء الصيادين الذين يعيشون فى البيوت الخشبية الصغيرة. حياة سهلة بلا مناصب بلا عقد، بلا مشاكل.

فى الأفق، فى السماء الصافية، بدت له «شاهيناز» الساحرة.

هل شعرت زوجة العميد بخيانته لها فدبت بينهما الخلافات وتطورت إلى قتلها؟ ربما من يدرى؟ العميد «البهنساوى» لا يحب أن يلومه أحد. إنه يحاول دائمًا أن يكون كاملا. لا شىء يثير أعصابه ويستفزه أكثر من اللوم والعتاب. يقول دائمًا فى مثل هذه المواقف: أنا لا أخطئ، الموقف اضطرنى لذلك وأنتم لا تعلمون ملابسات الموقف. لو أصبح اللوم من زوجته، فلا شك أن غضبه سيكون شديدًا عنيفًا.

رأى وجه «شاهيناز» يبتسم له، تحركت السحب فى خمول تداعب موجات البحر، ابتسامتها الساحرة سرت فى الكون كله. ابتسم وهو يقول فى نفسه: العميد محقًا فى كل أفعاله. من هذا الرجل القادر على مقاومة هذه الساحرة الفاتنة؟

حمد ربه على أن وهبه الذكاء وسرعة البديهة. فى نهاية حديثه مع «شاهيناز» طلبت منه أن يخبرها بأى أخبار جديدة حول العميد. تبادلا أرقام التليفون. فى الأسبوع الماضى تحدث إليها ثلاث مرات. فى البداية كان الحديث حول العميد ثم استطاعت بذكائها ودهائها تحويل الحديث إلى سحر الفن وروعة الطبيعة واندفاع الحياة. فتنته بصوتها العذب وحديثها الجميل ونظرتها المتفائلة للحياة. سحرته باندفاعها وتهورها. فى النهاية نصحته قائلة: أنت شاب وسيم، يجب أن تعيش الحياة دون أن تفهمها.

أليس هذا بداية الحب؟ إنها على حق. إنها على عكس «نهال» تمامًا

التى تحاول فهم الحياة دون أن تعيشها .

ضحك فى نفسه فى استهتار وهو يفكر فى أن العميد هو الأب الروحى . ومن حق أى ابن أن يرث أبيه .

اختفت الشمس خلف البحر وهبّ عائدًا إلى البيت مضطربًا ليجد «نهال» فى إنتظاره للاطمئنان عليه .

شعرت بمدى قلقه واضطرابه فقالت:

ـ لماذا لا تخرج يومًا للصيد مثلما كنت تفعل فى الماضى .

أجاب فى آسى:

ـ لا أعرف إلا صيد البلطى ، والملاحات تلوثت .

ثم برقت عيناه ببريق خاطف وأكمل:

ـ يقولون إن هناك أحجام معقولة فى ترعة النصر ، فى الطريق الصحراوى .

قالت مبتسمة:

ـ أنت فى حاجة الى رحلة صيد لإعادة ترتيب أفكارك .

قبل أن تكمل حديثها تركته وجرت إلى داخل شقتها فى لهفة . رفعت من صوت التليفزيون إلى أعلى درجة . «محمد منير» يشدو أغنية «إزاى» على بعض مشاهد الثورة . راحت «نهال» تردد الأغنية مع «منير» بينما النقيب «عماد» ينظر مذهولا . بعد إنتهاء الأغنية سألته عن سبب ذهوله ، فقال مندهشًا:

ـ إنه هو .

ـ من هو؟

ـ «محمد منير» .

ـ ماذا تقصد؟

ـ هو الشاب الأسمر الذى أنقذنى فى الميدان .

ضحكت قائلة:

ـ مستحيل .

ـ لماذا؟

ـ لأن «محمد منير» لديه أسلوب فى التعبير عن نفسه أقوى من أى ثورة .

ـ ربما ، لكنى واثق إنه هو .

ـ على كل حال ، يقولون إنها أغنية قديمة لكنها كانت ممنوعة .

فقال مداعبًا إياها وهو مازال مندهشًا:

ـ على كل حال إذا كانت أغنية «شادية» تعبر عن ثورة ٥٢ ، فإن أغنية «محمد منير» تعبر عن ثورة ٢٠١١ .

١٧

فتافيت الخبز التى يلقيها فى الترعة لجذب الأسماك تحدث دوامات خفيفة صغيرة. الدوامات تتداخل وتتشابك، ثم تختفى لتظهر دوامات غيرها. بعد حوالى نصف الساعة تجمعت الأسماك تحت قدميه. لكن النقيب «عماد» لا يرى شيئًا. الدوامات فى عقله شديدة وعنيفة، تتجاذبه من كل ناحية. الصور تلف وتدور حوله. «نهال»، «صابرين»، «شاهيناز»، العميد «البهنساوى»، و«محمد منير» بسمرته المحبوبة. دوران الصور السريع المتلاحق أصابه بالدوار فراح يتجول بجوار الترعة وهو يدندن أغنية «إزاى».

اشتم رائحة السمك المشوى. ربما يكون الجوع. لقد أصبحت وجبته ضئيلة جدًا فى الفترة الأخيرة. يأكل دون أى شهية لمجرد تفادى الشجار مع والدته أو مع «نهال». اتجه نحو أحد الصيادين وطلب منه شراء السمك لكن الصياد رفض لأنه مجرد هاو لا يبيع السمك، ثم أخبره أنه سيجد كوخ «عم سعيد» على بعد عشر دقائق سيرًا على الأقدام بجوار الترعة.

راح يكمل سيره وهو مازال يدندن أغنية «إزاى». من بعيد لمح الكوخ البدائى المصنوع من فروع الأشجار. أمام الكوخ شواية كبيرة وقلاية كبيرة. لا يوجد مكان للجلوس، واضح أنه ليس مطعمًا، بل يبيع الأسماك فقط.

فى هذا الجو الهادئ حيث الخضرة تمتد على الجانبين حتى الأفق يتوسطها الترعة الرائقة، حيث الهواء الطازج الممزوج برائحة النباتات والأشجار العالية التى تحف الطريق من الجانبين، تذكر «نهال». يتمنى أن تكون بجواره الآن لتناول هذه الوجبة الطازجة وهما يجلسان على الأرض تحت ظل شجرة ضخمة. ولا بد أن تكون «صابرين» معهما، لا بد من وجود هذه الطفلة المشكلة. إنها لا تزال ترفض الخروج من حجرتها مهما كانت الإغراءات.

تقدم نحو الكوخ. عندما حاول الصياح لينادى على صاحبه اكتشف ضعفه، ربما يكون هذا الضعف ناتجًا عن قلة الطعام، أو شدة دوامات العقل. وقف برهة يستجمع أنفاسه ثم صاح: عم «سعيد».

ظهرت عيون عم «سعيد» من شباك الكوخ. ضوء النهار جعل داخل الكوخ يبدو معتمًا لكن بريق عينىّ عم «سعيد» كان واضحًا. بريق خاطف يمتزج بالقلق والفزع والرهبة. التمعت عيناى النقيب «عماد» هى الأخرى. التقاء النظرات كان مدويًا، أو ربما هدير نبضات القلب الحادة العنيفة كأنه على وشك الموت أو على وشك البعث وعودة الروح. قال النقيب «عماد» بصوت مرتجف مذهول:

ـ تعال يا عم «سعيد».

خرج عم «سعيد» مرتبكًا. يرتدى جلبابًا رماديًا متسخًا وشبشب قديم، قدماه متسختان بالطين، يطلق لحيته وشاربه فى إهمال، وشعره أيضًا، لكن لحيته تدّل على الإهمال وليست لأى أسباب دينية. وقف عم «سعيد» صامدًا وهو يقول فى تحد:

ـ نعم.

انتفض كل جسد النقيب «عماد» ثم قال فى تهدج:

ـ سيادة العميد . . . العميد «البهنساوى» .

قال عم «سعيد» فى ثقة:

ـ أنا عم «سعيد» .

قال النقيب فى تحد:

ـ العميد «البهنساوى « . . . «البهنساوى» .

ثم جرى نحوه واحتضنه بقوة وهو يبكى . التفت يداى العميد حول النقيب الصغير واحتضنه بقوة أشد .

بعد أن هدأت نوبة البكاء والانفعال ، قال النقيب «عماد»:

ـ هل تعلم أنهم لم يذكروا اسمك ضمن قتلة الثوار؟ لا أحد يطلب القصاص منك؟

أشار له العميد «البهنساوى» بالجلوس على الأرض ثم جلس بجواره وهو يقول فى أسى:

ـ لا أتابع الأخبار ولا يهمنى معرفتها .

ـ أؤكد لك أنه لا داع للهرب .

ـ إذا لم يطلب الناس القصاص منى ، فلابد أن أقتص من نفسى بنفسى . لقد حاولت الانتحار . أعلم أن الانتحار كفر وآخرته جهنم . وأعلم أننى أستحق ذلك . لكنى فى النهاية إستسلمت لقضاء الله وليفعل ما يشاء .

قال النقيب «عماد» مهونًا:

ـ إنها أوامر عسكرية ، ولا أحد يجرؤ على تكسير الأوامر .

ضحك العميد ساخرًا وهو يقول:

ـ أعلم ذلك .

ـ إذن ، لا داعى لعقاب نفسك بهذا الشكل .

تنهد العميد «البهنساوى» وقال:

ـ هل تذكر يوم أصدرت لك الأمر بإطلاق النار؟

ـ طبعًا ، هذا يوم لا ينسى أبدًا .

ـ هل تعلم ماذا رأيت فى الميدان؟

ـ الشباب الثائر .

قال العميد فى حدة:

ـ لم يكونوا شبابًا فقط . كانوا شبابًا وأطفالا وعجائز . كانوا رجالا ونساءً . لمحت بينهم من يجلس مشلولا على مقعد ذى عجلات ، لمحت بينهم عاجزين يستندون إلى عكازات . كان أمامنا جدار إحدى العمارات . أمام هذا الجدار رأيت شابًا . . .

بكى العميد «البهنساوى» وصمت قليلا محاولا التماسك ثم قال:

ـ رأيت شابًا وسيمًا يرسم لوحة جدارية على الجدار . هذا الشاب الصغير الوسيم الحالم كان يحب إحدى بنات عائلته تصغره بعامين . يحلم بالزواج بها ويحلم أن يكون رسامًا مشهورًا مرموقًا . كان يقضى معظم وقته فى الرسم . تأكدت أنه هو عندما إستدار ورأيت ملامح وجهه بوضوح . رغم الزحام الشديد لكن صورته هى التى تسلطت على ، رأيت ابنى «هانى» .

انحنى العميد وأخفى وجهه فى يديه وراح يبكى مثل طفل صغير . ثم رفع رأسه بعد برهة وقال وفى عينيه بريق الفزع:

ـ لكن السلاح كان أسرع. أصابته إحدى الطلقات وسقط قتيلا أمام عيناى.

ثم راح العميد يضرب رأسه بيده وهو يقول:

ـ قتلت ابنى بيدى... لا أعرف... إذا كانت... المفاجأة... هى التى شلت يداى وجعلت اصبعى ضاغطًا على الزناد... أو... ربما... يكون السلاح أسرع منى...

نظر إليه النقيب «عماد» فى فزع. العميد قتل ابنه. من أجل من؟ ولماذا؟ لكن تكسير الأوامر العسكرية خيانة للوطن. لا يوجد ما هو أبشع من خيانة الوطن. تذكر كلمة والده عندما أخبره برغبته فى الالتحاق بكلية الشرطة لأن ضباط الشرطة هم سادة المجتمع. وأكد على ذلك بأنهم، فى الماضى، كانوا لا يقبلون إلا أولاد البشاوات. فى هذا اليوم، قال له والده: أنت لا تعرف معنى كلمة «وطن». ماذا تعنى كلمة «وطن»؟ هل الوطن هو الذى طالب الأب بقتل ابنه؟ مستحيل!

حاول استعادة هدوئه بصعوبة ثم سأل:

ـ ولماذا أتيت إلى هنا؟

قال العميد:

ـ بعد أن... رأيت... الدماء... تنفجر من صدر ابنى الوحيد... تركت السلاح واتجهت إلى المنزل. سألتنى زوجتى عما حدث. أخبرتها بأننى قتلت ابنى بيدى. انهارت فوق المقعد صامتة فى ذهول. ثم جرت وألقت بنفسها من الشرفة. كان بمقدورى منعها. لكنى أنا أيضًا كنت مذهولا أكثر منها. أنا الذى قتلته. خرجت إلى الشارع أهيم على وجهى. بعض الناس عاونونى على تبديل الملابس العسكرية بهذا الجلباب. فعلوا ذلك وأنا أقف بينهم مسلوب الإرادة.

ثم تركونى، خرجت أكمل سيرى. عندما وصلت إلى هنا اكتشفت أننى خرجت إلى الطريق الصحراوى وسرت لمسافة أكثر من مائة كيلو متر دون أن أشعر. تلقفنى الأهالى هنا، حاولوا معرفة شخصيتى وحكايتى. لكنى لم أقل كلمة واحدة. فى البداية استضافونى فى منازلهم وأتوا لى بالطعام. ثم بنوا لى هذا الكوخ وطلبوا منى شراء السمك من الصيادين ثم بيعه. يصفونى بأننى رجل مبروك. قل لى يا بنى، على حسب القانون، ما عقوبة من يقتل ابنه؟

ابتسم النقيب ساخرًا ثم سأل:

ـ هل تعلم أين يوجد «مبارك» الآن؟

أجاب العميد فى إصرار:

ـ لا أريد أن أعلم.

ـ يجب أن تعلم.

قال العميد ساخرًا:

ـ بعد أن وصلت إلى رتبة عميد وأصبحت على وشك رتبة لواء، اكتشفت أننى لا أعلم شيئًا. ولا أريد أن أعلم شيئًا.

التفت النقيب إلى الترعة يتأمل المياه ويفكر فيما حدث. لا شك أبدًا فى ضخامة الكارثة. بدون شك، لا يستطيع أب فى هذه الدنيا تحمل مثل هذه الكارثة. لكن... كيف يترك العميد «وليد البهنساوى»، الأب الروحى الذى علمه الانضباط العسكرى، علّمه القانون، علّمه الصلابة والقوة، علّمه أن ضابط الشرطة مخلوق من الحديد الصلب، كيف يترك الأب الروحى منهارًا بهذا الشكل؟

فى هذه اللحظة، تذكر «شاهيناز». إنه لا يفكر بها لنفسه الآن.

لكن من أجل إنقاذ العميد. بالتأكيد وسيلة حقيرة قذرة. قد تقبل وقد ترفض. لكن لا بد من فعل أى شىء فى هذه الدنيا من أجل إنقاذ العميد. ما أن ذكر اسمها حتى نظر إليه العميد فى ثبات كأنه يقرأ أفكاره ثم قال بصوت قوى رصين:

ـ احذر سحر السلطة.

ـ إنها تبحث عنك مثلى.

ـ إن كنت تبحث عنى طلبًا للنصيحة فهذه هى نصيحتى: احذر سحر السلطة.

غضّ النقيب بصره ثم سأل:

ـ ألن تعود معى الآن؟

قال العميد فى قوة وعناد:

ـ لن أترك هذا المكان ولا تقل أنك رأيتنى.

العناد واضح فى عينيه، وهو يعلم جيدًا مدى عناد هذا الرجل فقال مضطرًا:

ـ موافق، لكن اسمح لى بزيارتك من حين لآخر.

ـ موافق.

انصرف النقيب «عماد» مضطرًا. فى اليوم التالى، بعد انتهاء العمل ذهب لزيارته فلم يجده. بحث عنه بطول ترعة النصر من الجانبين دون جدوى. فى اليوم التالى، طلب إجازة وذهب لزيارته فى الصباح. لكن العميد «البهنساوى» تبخر، كأنه سراب، كأنه شبح من الماضى.

عاد إلى منزله منهكًا خائر القوة. عندما توفى والده اعتبر العميد

والده. والآن أصبح يتيم الأب بينما هو فى أمس الحاجة إلى الأب.

أدار جهاز الكمبيوتر على أغنية «إزاى». ظل يكرر ويعيد الأغنية، يردد وراء «محمد منير». لا يعلم مقدار الوقت الذى مضى لكنه سمع آذان الفجر.

أثناء طفولته، كان يصلى. تعلم الصلاة من والده. وعندما اعتملت بداخله هرمونات الذكورة هجر الصلاة إلى اليوم. هب واغتسل وتوضأ وصلى الفجر. وهو ساجد راح يبكى بشدة. «إزاى» «صابرين» تقبع خائفة مرتجفة فى حجرتها؟ هناك خلل، خلل فادح ويجب تداركه فى أسرع وقت، وبمنتهى الحسم. فكر فى الصعود إليها الآن. لكنها نائمة بلا شك. تعانى الكوابيس. أجّل الفكرة قليلا. جلس فى الشرفة يرقب حركة الترام مثلما كان يرقبها وهو طفل. لمح والد «صابرين» خارجًا من باب العمارة. بقدر ما يحب «صابرين» بقدر ما يكره هذا الرجل الذى يدعى الإيمان بينما قلبه مفعم بالحقد.

بدّل ثيابه، حلق ذقنه وتعطر. ثم صعد إلى «صابرين» بخطوات ثابتة عنيدة. لم يلق السلام على والدتها، اتجه إلى حجرتها مباشرة. قال محاولا الابتسام:

ـ الجو حار، ستخرجين معى الآن لشراء الآيس كريم.

انكمشت الجميلة فى ركن الفراش وصرخت، فقال فى عناد وهو يخبط يده فى الجدار:

ـ ستخرجين معى الآن.

اشتد صراخ الجميلة فى فزع. وصل صراخها إلى «نهال» التى صعدت بسرعة. حاولت تهدأته وتأجيل هذه الخطوة لمدة يومين لكنه قال فى إصرار وعناد: قلت الآن.

شعر الجميع بمدى إصراره وعناده، راحت الأم و«نهال» يعاونان الجميلة على تبديل ثيابها وهى تتلوى وتصرخ. قبض على يدها بقوة بينما «نهال» تقبض على اليد الأخرى فى حنو بالغ.

خرج الثلاثة من باب العمارة. تعثرت الجميلة وسقطت على الأرض فى هلع. تعاون النقيب مع «نهال» لإيقافها على قدميها. سارت الجميلة وسطهم مرتجفة. بعد عدة محاولات فاشلة، بعد عدة عثرات، قدمت النقود بيد مرتجفة إلى البائع. نظرات البائع الطيبة أعادت إليها الهدوء فراحت تلتهم الآيس كريم.

تمت بحمد الله.

حسام أبو سعدة.

٢٦ / ٩/ ٢٠١٤

hossamaboseda@gmail.com

كتب للمؤلف.

- أفلاطون فى عصر الفضاء.
- زهرة الصحراء.
- القرصان.
- ١٢ قصة مهاجرة.
- أفكار متناقضة.
- الحلم.
- «كليوباترا»، أميرة الحب والحرب.
- الطاعون.
- قرطاجنة.
- أساطير الهنود الحمر.
- أساطير الإغريق.
- «يوليوس قيصر»، العسكرى والسياسى.
- حضارات أمريكا القديمة.
- «إسكندر»، عبقرى السيف والفكر.
- التسامح.
- مقدمة فى الفينومينولوجيا.
- قبل الإعدام.
- حكايات البحر.
- تفسير الأحلام.
- أكلة لحوم البشر.